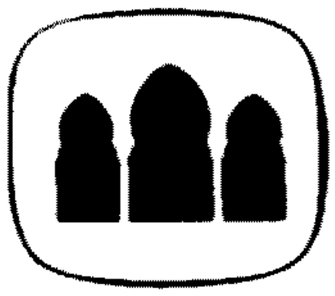

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مكناس

العدد الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع والنشر محفوظة

1408 هـ - 1987 م

فهرس الموضوعات

• ندوة «إشكالية البحث في الجغرافيا ومناهجه»
إشكالية البحث وكارطوغرافية الأوساط الطبيعية
محمد رحو 7
المقاربة المرفوبيدلوجية في دراسة الجبال المتوسطة المتوسطية
الطيب بومعزة 13
مكانة الهيدروكيمياء في تعريف دينامية الوسط الطبيعي
ابراهيم أقديم 17
الدراسات المندمجة في الجغرافيا الطبيعية
محمد لبحر 21
ملاحظات حول البحث الجغرافي في المغرب
محمد يازغي مباشر 27
تحولات البوادي المغربية : مقاربة منهجية
لحسن جنان، وعمرو إديك،
عن مجموعة البحث حول الأطلس المتوسط 33
الجهاز الاقتصادي لمدينة فاس العتيقة
علي فجال، ومحمد عامر
عن مجموعة أطلس فاس 37
التقرير العام للندوة
محمد يازغي مباشر 44
• دراسات ومقالات
المضاربة : المشاركة بين رأس المال والعمل
علال الخياري 47
تأثر قدامة بن جعفر بالنقد اليوناني من خلال كتابه «نقد الشعر»
امحمد العلمي 61
مفهوم الرتبة بين القديم والحديث
عبد العزيز العماري 71
مكناس : ايديولوجيا المؤسسات في مرحلة الحماية
عبد الرحمان بن زيدان 77
وثائق حول التاريخ السياسي والاجتماعي لمدينة مكناسة في العصر الوسيط
(من خلال الانتاج الادبي والتاريخي والنوازل)
ابراهيم القادري بوتشيش 83
• النشاط العلمي والثقافي بالكلية :
فهرس عام لبحوث الاجازة بالكلية للموسم الجامعي 85 ـ 86
شعبة اللغة العربية وآدابها
شعبة الدراسات الاسلامية
• التعريف بمجموعات البحث داخل الكلية 113
معمل المسرح الجامعي

ندوة «إشكالية البحث في الجغرافيا ومناهجه»

إشكالية البحث والخرائطية في ميدان الأوساط الطبيعية.

محمد رحو
كلية الآداب
فاس.

عندما يعرض ميدان الأوساط الطبيعية للحديث، عادة ما تثار حوله عدة نقاشات تستهدف تحديد المنهجية والابستمولوجيا، ومرجع ذلك هو الحداثة النسبية لهذا النوع من الدراسات المسماة بالشمولية أو المندمجة، وتعدد التخصصات التي تريد كل منها فرض رؤاها حول هذا الموضوع.

سنحاول من خلال هذه المقاربة طرح بعض عناصر النقاش قصد إعطاء نظر فيها وذلك من خلال اربعة محاور وهي :

- مفهوم الوسط الطبيعي
- الهدف من دراسته
- البحث عن منهجية
- محاولة في خرائطية الأوساط الطبيعية.

1 ـ مفهوم الوسط الطبيعي.

هناك لبس يتعين علينا تبديده، منذ البداية وهو المتعلق بمصطلح «الأوساط الطبيعية Les milieux naturels» الذي لا نقصد منه في منظورنا الأوساط «على طبيعتها» أو ما يمكن تسميته بالأوساط الفيزيائية «Les milieux physiques» بل القصد منه هو كل الأوساط المكونة للمجال، للطبيعة، للمشهد الجغرافي «Le paysage».

الوسط الطبيعي هو قبل كل شيء وسط مفتوح، إذ أنه لا يعقل أن تقوم دراسته على نظرية العلاقة الثنائية سبب / مسبب فيه، لأن مركباته وإن سهل حصرها عدديا فإن علاقة التفاعل التي تربطها والتي بها يتحرك الوسط لا تستجيب للتحديد النظري ولا للتعميم المطلق. ومركبات الوسط الطبيعي كما هو متداول عند بعض الباحثين هي ثلاثة :

- المركب اللا حياتي. ويشتمل على عناصر فيزيائية : أشكال تضاريسية، بنية، توضعات، فسخات، دينماية السفوح، المناخ، الماء...
- المركب الحياتي ويتجلى في النبات، الحياة البكتيرية الترابية، الحياة الحيوانية...
- المركب البشري ويحتوي على 3 متغيرات لعلاقة الانسان بمجاله : الاستهلاك والتدبير والانتاج.

إذا كان المركبان الأولان يردان في كل الاعمال المتعلقة بالأوساط الطبيعية بطريقة أو بأخرى، فإن المركب الثالث يغيب في كثير من الحالات. والسبب في ذلك هو عالق بالتعريف الذي يعطي للوسط الطبيعي بمفهومه الضيق أي مفهوم الوسط الفيزيائي. Le milieux physique في هذه الحالة تبدو الاشكالية واضحة لأن الأمر سيتعلق بسرد متتالي للمركبين اللاحياتي والحياتي. وهو تشويه عادة ما ينتاب بعض الأبحاث الجغرافية بسبب الاستمرار في التشبث بالتقسيم الحاصل بين شقي الجغرافية، الطبيعي (الفيزيائي) والبشري.

أما إذا اعتني بالمركب البشري فإنه يدرس حسب أغراض الاهتمامات الخاصة بكل باحث ومن خلال رؤى متعارضة.

ـ الرؤية الأولى تعتبر هذا المركب مشكلا في حد ذاته ومن ثم فإنه يقحم دونما اعتبار لمنهجية العمل أو هدفه. فهو تارة يمثل أحد عنصري التفكير المانيكي بصفته عاملا هداما، وتارة يركب فوق مجال كمحتله فقط وذلك بعرض كل ما يتعلق به من إحصاءات وتحاليل، دون وضعه في الاطار التفاعلي العام. وفي بعض الحالات تنتزع منه صفته كفاعل وتعرض سلبياته فقط كمتقبل لأن الطبيعة تتحكم في نشاطه الاقتصادي مع العلم أن المجال ليس فقط ماهو مزروع. وفي أحسن الظروف يعتني بالانسان كمدبر للمجال في باب يذيل به البحث بعرض حول إعداد التراب والهيئات المتخصصة التي تقوم به.

ـ الرؤية الثانية تعتبر الانسان مركبا له نفس القيمة التي هي للمركبين الآخرين فهو فاعل نشيط وفعال ولكن يغفل الى حد بعيد دوره كمنظم.

ـ الرؤية الثالثة يدرس من خلالها الانسان ليس كمنتج وكمستهلك للمجال وإنما كمشكل وكمنظم له أيضا، أي كمدبر لشؤونه حسب ما يتوفر عليه من مستوى تقني واقتصادي، وخاصة حسب النظم السوسيو ـ اقتصادية والايديولوجية التي يعيش في إطارها، وبصفة تبعية حسب موقع مستوى تدبيره (التدبير الفردي) من المستويات التدبيرية الاخرى الجماعية (بمفهوم المجموعة) والجهوية والوطنية.

إن هذه الرؤية الأخيرة لا يقصد منها الدفع بالباحث في الأوساط الطبيعية أن يحيد عن اهتماماته بالخوض في غمار الحيثيات والميكانزمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمركب البشري، فتمة من المختصين من هو مؤهل لذلك ولمد الجغرافي بما هو في حاجة اليه من خلاصات.

2 ـ الهدف من دراسة الوسط الطبيعي.

الهدف من هذه الدراسة هو إقامة العلاقة التفاعلية الموجودة بين المركبات البيئية من جهة والعلاقة بين أجزاء الوسط من جهة أخرى وذلك بطريقة شمولية. وهذا في غالب الحالات لا يتحقق إلا جزئيا، لأن الهدف يحرف دائما في اتجاه الباحث.

وكأمثلة لتوضيح ذلك يمكن الاشارة الى أهداف بعض الاختصاصات في الجغرافية الطبيعية. فالهدف الأساسي من الجيومرفولوجية الحركية هو تحديد العلاقة بين التشاكل والتترب وذلك بتحديد كل النظم والطرق التشكالية المتحكمة في ذلك، إضافة الى القيام بتحليل لقياسات الاشكال وبنيتها الداخلية. أما المركبات الأخرى فإنها تعتبر مضافة فقط ولا يقصد منها في بعض الحالات إلا التطويل. ومن خلال قراءة خلاصات هذا النوع من الأبحاث يظهر الى أي حد يبقى العمل في بدايته وغير منطلق بعد في الميدان الجيوبيدولوجي يكفي أن نشير الى انه حيث تنعدم التربة بمفهومها الزراعي تنعدم معايير التصنيف. ونفس الشيء ينطبق على الدراسة البيوجغرافية التي لا تتبلور جودتها في مقاربة الأوساط الطبيعية إلا في الوسط المنبت.

ومن خلال هذه الأمثلة التي يمكن تمديدها لتشمل باقي الاختصاصات الأخرى، يتضح أن البحث يكيف هدفه حسب الاهتمامات وذلك في غياب منهجية مسطرة وواضحة وفي غياب الاقتناع بالوسط الطبيعي كوسط شمولي.

3 ـ البحث عن منهجية.

الوسط الطبيعي هو ظاهرة شمولية، تتفاعل مركباته بدون انقطاع زمني أو مجالي ولا يمكن

تناوله إلا على هذا الأساس. ولهذا الغرض يمكن الاعتماد على منهاجين للمقاربة : منهاج تجميعي تركيبي ومنهاج شمولي أكثر دقة واستجابة للهدف المتوخى من دراسة الوسط الطبيعي.

منهاج المقاربة الأولى ينطلق من تفكيك المركبات ودراستها كل منها على حدة وإعادة تركيبها. والتركيب كما هو معروف ليس هو الشمولية، فقد ينتابه تحريف على مستويين :

ـ على مستوى ما يمكن تسميته بالانطباع الذاتي حيث يعطى لمظهر أهمية ليست له في الحقيقة وذلك لسبب من الأسباب نفسية كانت أم عملية تتعلق باكتشاف ما أو توفر المادة الخام الخ... في كل الحالات يكون الباحث على عتبة الانبهار، وهذا رغم اقتناعه بنسبية الأهمية في الميدان الجغرافي لأن الذاتية لا تنفصم عن البحث.

ـ على مستوى الاقتناع العلمي الذي يفرضه التخصص والذي حددنا بعض سلبياته في فقرة سابقة.

ـ منهاج المقاربة الثاني وهو شمولي ويمكن تلخيصه في المحاور الثلاثة التالية.

ـ الوسط له خصوصيات ذاتية تشخصه منذ البداية.

ـ الوسط يتحرك في الزمان والمجال.

ـ الوسط تتفاعل مركباته على مستويين : تبادل الطاقة وتبادل المادة.

من خلال المحور الأول تحدد الصفات الأساسية للمنظر العام وأجزائه مع مراعاة تتميمها وتصويرها مع تقدم البحث بإقامة علاقة جدلية بين المحاور الثلاثة التي لا تنفصم تأثيراتها المتبادلة.

أما بالنسبة لحركية الوسط في الزمان والمجال فهي نوعان : حركية مستمرة وحركية دورية. والفصل بينهما أساسي لأن التقطع الزماني أو المجالي لظاهرة ما عادة مايكون له تأثير على الوسط بشكل مخالف لما هو لاستمرار هذه الظاهرة. والتقطع الدوري يضاف له تقطع ثاني لا يقل أهمية وهو ما يصطلح على تسميته بالحادثي.

الحركية الزمانية او الحركية العمودية لمركبات الوسط الطبيعي هي وضعها في إطار مقارنة دائمة بين زيادة المركبات سمكا أو كثافة أو حجما أو فعالية وتناقصها. هذه المقارنة تحدد لبعض المركبات على شكل حصيلة (أو ميزانية) مجردة (bilan stationnel) تهم جزءا من أجزاء الوسط، أو مقارنة (bilan comparé) تهم أجزاء متقاربة ومتفاعلة في ما بينها كأجزاء السفح مثلا.

أما الحركية المجالية أو الحركية الأفقية فهي التي تهم تحديد توسع رقعة ما أو تراجعها. وتكون المقارنة هنا واضحة لأن أي توسع يقع على حساب تراجع رقعة أخرى والعكس صحيح.

المحور الثالث الذي حدد هذه المقاربة الشمولية يهم التبادل المادي والطاقي الذي يقع بين مركبات الوسط. بالنسبة للمادة يمكن تحديد تبادلها في الأمثلة التالية : دورة الحوامض والغازات والمعادن (مثلا دورة النيتروجين) الغسل، تصاعد بعض المواد الخ... أما الطاقة فيمكن حصرها، في إطار البحث الجغرافي، في الاشعاع، الحرارة، الجريان المائي والطاقة البشرية...

عندما تتم معالجة كل أطراف الوحدة الكبرى، أي الوسط بصفة شاملة، تكون عملية التجميع مقبولة بعيدا عن كل إضافة للمركبات بعضها للبعض. أما الوحدات الجزئية والفرعية فإنها لن تحدد عشوائيا وإنما وفق معايير صنافية ميدانية تستنتج من خلال ما أشرنا اليه سابقا حول التقدم في مقاربة المشهد الطبيعي. والتجميع ليس تركيبا حسابيا فهو يخضع لتصنيف يحدد حسب الهدف : درجة الاستقرار أو نوعية التدبير المجالي أو درجة التوازن البيئي بين المركبات أو نوعية الأوساط الطبيعية بصفة عامة.

4 ـ محاولات في الخرائطية.

أول مشكل يطرح عند محاولة وضع خريطة جغرافية هو المتعلق بالمقياس. وخرائطية الأوساط الطبيعية لا تحيد عن ذلك بالعكس، فهي تعاني من اهتمامين متعارضين : الاهتمام الشمولي الذي لن يمثل إلا بمقياس متوسط، والاهتمام التفصيلي لمركبات الوسط المعتمد على مقياس كبير. والتوفيق بينهما على خريطة واحدة يظهر صعبا، إلا أنه إذا توفرت الامكانات التقنية يستحسن الاعتماد على مقياس كبير وضم الورقات الى بعضها بشكل متقارب.

لنفترض أن العمل الميداني نقل الى خرائط متعددة كل منها يمثل مركبا أو عددا من المركبات الموضوعية، فستتم عملية وضع الخريطة بواسطة التركيب أو التقارب أو التحويل. والعملية تكون شاقة وتصطدم بعدة مشاكل منها : عدم توافق المقاييس والصنافات، مشكل التنسيق بين كل المعطيات، التجميع الذي يتطلب منهاجا دياليكتيكيا بين مختلف المحاور السابقة الذكر وبين كل الرقع.

في كل الحالات فإن الوضع النهائي سيدخل في أحد النوعين الخرائطيين المتداولين : النوع التركيبي للعلاقات أو النوع التركيبي التصنيفي.

• إذا كان النوع الأول هو المعتمد وكان العمل الخرائطي عشوائيا، فإن الخريطة النهائية ستكون شبيهة بتلك المسماة «بالاقليمية» أو «خريطة الاقليم الطبيعي». ولتجاوز ذلك يتم استعمال - وبطريقة عقلانية - الامكانيات الهائلة التي تمنحها سيميولوجية الخرائطية، وهذا ما نقترحه من خلال الجدول المرفق الذي طبقناه تجريبيا على وحدة من وحدات الوسط الطبيعي بمنطقة وزان.

قد يظهر هناك عدم توافق بين ما سيكون في النص (كتاب أو دليل) وما هو موضوع في الخريطة، لأن النص يتحدث عن أوساط مشخصة بتسمياتها وبخصائصها والخريطة قد تبعثر هذا التشخيص. إلا أننا نؤكد على أن أي بعثرة لن تظهر، لأن المركبات التي وضع لها مستوى قراءة انتقائي أو ترتيبي أو كمي يساعد على تحديد هذه الأوساط.

نموذج لتصميم كرطوغرافي للأوساط الطبيعية
(وسط تلال وجبال منخفضة - منطقة مقدمة الريف)

Type de la carte :
synthétique de corrélation

صنف الخريطة تركيبي للعلاقات

النوع	المتغيرات البصرية	التوطين	مستوى القراءة
أ - المركب الجغرافي - طرق ومسالك	- الشكل (خطوط سوداء) - الشكل (أسود)	- خطي - نقطي	تجميعي تجميعي
ب - المركبات الموضعية	- شكل واحد للخط (لون رمادي)	- خطي	شبه تنظيمي
الأساس، صخري أو توضعات	- اللون (1) - الشكل (عددا لأشكال - عددا لأنواع)	- مساحي غير منتشر	تجميعي
أنواع التربة حسب العمق وقابلية الاستيعاب المائي	اللون في إطارجزء واحد من الطيف الضوئي ولون واحد مع تذبذب قيمته	- مساحي منتشر	إنتقائي تنظيمي
الدينامية - الضياع على السفوح - الكسب	- اللون أحمر الشكل=نوع الدينامية اللون أزرق بنفسجي	نقطي متناثر - تجميعي للشكل	شبه كمي وانتقائي اللون
الغطاء النباتي - النوع - الكثافة	- التوجيه (خطوط خضراء مغلوقة) - القيمة أو الحدة (كثافة الخطوط)	مساحي	- تجمعي - انتقائي
استعمال التربة - النوع - الكثافة	- التوجيه (خطوط بأخضر زمرد) - القيمة أو الحدة	مساحي - انتقائي	- تجميعي

• النوع الثاني : الخريطة التركيبية التصنيفية تنطلق من تصنيف أنجز مسبقا يوضع فوق الخريطة حسب توطين مساحي منتشر ومن خلال متغير بصري أساسي وهو القيمة.

لنفرض أن التصنيف المختار هو درجة الاستقرار. تمتد البقع معبرة كل منها على صنف معين باعتماد القراءة الانتقائية والترتيبية أحيانا إذا مثلت بواسطة ألوان جزء واحد من الطيف الضوئي.

الخرائط من هذا النوع عديدة إن لم نجزم بالقول على أنها الوحيدة التي تمثل الأوساط الطبيعية. وهي تعاني من 3 نقائص :

ـ أولا : غياب الحركية فيها لكونها خرائط قارة.

ـ ثانيا : مفتاح الخريطة يكون عبارة عن جدول ذي مدخلين ينمحي إزاءه سبب وجود الخريطة وهو القراءة السريعة.

ـ ثالثا : سيطرة الذاتية في تحديد الأوساط في غياب معايير دقيقة.

بالنسبة للنقص الأول والثاني يمكن تفاديهما باللجوء إلى تصميم مدقق للخريطة بإدخال متغيرات بصرية أخرى إضافة الى متغير اللون أو القيمة وطريقة التوطين النقطي إضافة الى المساحي.

أما النقص الثالث فلتجاوزه، أي لازالة الذاتية يلجأ واضعو الخرائط حاليا الى استعمال طريقة الجداول القابلة للتنظيم Les matrices ordonnables، حيث توضع أفقيا الوحدات الخرائطية. مهما كان عددها مرتفعا، وعموديا عناصر ومركبات الوسط الطبيعي. وعند تنظيم الجداول المتحركة ستظهر جهات متجانسة وواضحة حسب الوان أو قيمة الخانات. هذه القيمات والألوان تكون محددة سلفا ومعرفة بما ترمز اليه من درجة استقرار مثلا.

من خلال ما سبق، لا نريد الدعوة للفكر الانسيكلوبيدي بل للعمل الجماعي الذي يكون لوحده كفيلا بإنتاج عمل جيد. علم الأوساط الطبيعية علم وتري كما ورد في كتابات G.Bertrand. إلا أن ما نلح عليه هو الاقتناع بشمولية العمل كشرط مسبق، فدون هذا المنطلق الأساسي سيتحول العمل الى مجموعة أعمال فردية مضافة بعضها للبعض. في هذا السياق تكون فريق للعمل بشعبة الجغرافيا بفاس «فريق البحث في الأوساط المندمجة بسايس» «ERMIS» وضع له كهدف أولي تحديد منهجية شمولية للعمل يعتمدها كل باحث كأرضية إجبارية.

محمد رحو

المقاربة المرفو ـ ترابية في دارسة الجبال المتوسطة المتوسطية، نموذج بني يزناسن (المغرب الشرقي)

الطيب بومعزة
كلية الآداب
مكناس

إن دراسة التشكيلات التضاريسية في معزل عن التكوينات السطحية أو العكس في الأوساط الجبلية داخل النطاقية المتوسطية تطرح مشكل منهجية دراسة الجانب الطبيعي التشكالي دون الجانب الترابي الذي ترتبط به كل التكوينات السطحية داخل التشكيلات التضاريسية. إن هذه التكوينات السطحية هي التي تحدد تطور الوسط الطبيعي بالنسبة للتطور المتسلسل الذي يتجلى في حلقات التشكال Morphogénèse والتترب pédogénèse فعمليات التترب هي في نفس الوقت تركيب ونتيجة Composante et résultante لعمليات التشكال. فهي تركيب لأنها تبتدىء بعملية تحلل وتجوية الصخرة الأم أو الأساس بصفة عامة، ونتيجة résultante لأنها تتطور في وسط ناتج عن عمليات التشكال. ففي نفس الوقت الذي يترتب على العوامل الجيوديناميكية السطحية المادة الأولية من التربة ثم التربة بعد ذلك، فإن نفس العوامل تؤدي الى نحت الأشكال التضاريسية. إن هذه الحتمية التي يتعاقب فيها السبب والنتيجة تجعل من عمليات التترب مرتبطة أو متطابقة مع الوسط المرفو تشكالي. فهي إما سابقة أو لاحقة حتى أن التمييز بين كل عملية صعب التحديد. فهي تنتج في نفس الوقت وفي نفس الوضع، فالوحدة المرفولوجية والوحدة الترابية لهما نفس الاحداثيات الزمنية والمجالية. إلا أن الحلقات الكبرى المتداومة بين التترب والتشكال غالبا ما تكون مرتبطة بطبيعة الظواهر الحيوية، فعمليات التترب تقترن بظواهر الاستقرار الحيوي Biostasie بينما عمليات التشكال تقترن بفترة الاختلال الحيوي Rexistasie.

إن الظواهر الجيومرفولوجية المصنفة في إطار ظواهر كارثية كالانزلاقات والتخويرات مثلا تدخل في إطار تاريخ التربة ولوخص الأمر ليس فقط دفن أو طمر تربات أخرى، وإنما تنحيتها وإزالتها من أساسها بصفة نهائية فإنها في الحقيقة تؤدي الى بدء عمليات التترب من الصفر وتشارك في أصلها من جديد.

يستحيل دراسة توزيع التربات في النطاقات الجبلية دون ربطها في إطارها الزماني والمكاني بالعناصر والعوامل الجيومرفولوجية المتحكمة في هذا التوزيع المجالي. فالنطاق الجبلي نطاق وعر وعارض متباين التشكلات التضاريسية، وبالتالي تنعكس هذه العناصر الطبوغرافية على توزيع التربات والتكوينات السطحية بصفة عامة. وهنا يجب التمييز ما بين التشكلات البنيوية التي يمكن أن تضم سفوحا موافقة لميلان الطبقات، محدبات أو مقعرات حيث تميل فيها التكوينات السطحية الى

نوع من التجانس لكن في حدود تشابه الظروف البيومناخية، وما بين البروزات المختلفة التكوينات على سفحي الأودية التي تصبح فيها اعتبارات الصخارة ودرجة الانحدار العنصر المهم في تخديد طبيعة التكوينات السطحية.

إن النطاقات الجبلية علاوة على التباين في طبيعة التشكلات التضاريسية، تمتاز بوجود اختلاف وتباين واضح من حيث الظروف البيومناخية وطبيعة اتجاه التعريض Exposition وهذا ما يمكن ملاحظته في أغلب الجبال ذات الطبيعة المتوسطية منها جبال يزناسن شمال شرق المغرب حيث يلاحظ تباين مهم ما بين التشكلات التضاريسية ذات التعريض الجنوبي والأخرى ذات التعريض الشمالي. فهذا الاختلاف ينعكس بوضوح على الاطار العام للتكوينات السطحية من حيث السمك وطبيعة البنية والنسيج. فهذه التكوينات السطحية هي التي تعبر عن مدى تطور كل وسط طبيعي بالتحديد من خلال الرفوف المتغايرة التي يظهر فيها تسلسل أو انقطاع الإرساب حسب أهمية كل فترة.

وحسب طبيعة واتجاه التعريض تختلف كذلك الظروف البيومناخية على السطوح الموجهة شمالا عنها على السطوح الموجهة جنوبا، وينتج عن هذا الاختلاف اختلاف في أهمية التساقطات وكثافة الغطاء النباتي، وأهمية التعرية على جانب دون الآخر. فعلى السفوح المعرضة نحو الجنوب تقل كثافة الغطاء النباتي مما يسمح بازدياد قوة التعرية الشيء الذي يقلل من ثبات التكوينات السطحية خصوصا وأن طبيعة التساقطات في المناخ المتوسطي تمتاز بعدم انتظامها وتساقطها المباغت بكمية كبيرة ولوقت وجيز يكون أثرها جد واضح على انجراف التكوينات السطحية بسرعة. في حين على السفوح الموجهة شمالا حيث كثافة الغطاء النباتي مهمة تشهد السفوح نوعا من الثبات الموازي لحالات الاستقرار الحيوي وتبقى التكوينات السطحية تحتفظ نوعا ما بسمكها.

إن دارس التربة في هذه الأحوال لا يمكن أن يستغني عن هذه المعطيات الجيومرفومناخية ولا عن مرفولوجية السطح دون ربطها بتوجيهها ودرجة الانحدار فيها وطبيعة الغطاء النباتي. فقد توجد مجموعة متداخلة من أنواع التربات ناتجة عن عمليات تترب مختلفة الحقب تعرضت لدفن نتيجة لتوالي عمليات التعرية بكل انواعها، فإضفاء عمر او طبيعة تطور معزولة على نوع من التربات يصبح أمرا يعاد النظر فيه، خصوصا إذا تعددت البروزات الصخرية وكانت المكونات الصخرية مغايرة من حيث التكوين البتروغرافي، وحتى في حالة تواجد صخرة أم واحدة فإن التعميم المجالي لوحدة ترابية معينة يصبح أمرا مغلوطا فيه في بعض الحالات كالحث مثلا. في جبال بني يزناسن هذه الاشكالية تطرح نفسها حيث الاختلاف الطبوغرافي ما بين نطاق متوسط الانحدار وآخر ضعيف الانحدار يؤدي الى اختلاف في درجات التترب رغم تواجد صخرة أم واحدة متجانسة، فعوض أن نحصل على تربة شبه متجانسة ضعيفة السمك نحو الأعلى إلى سميكة في الأسفل، فإنه نحصل على تربة متوسطة السمك حمراء صلصالية ورملية بين الشقوق في الأعلى ثم رفوف رملية arénes في الأسفل ذات سمك يتعدى 2 م بها نسبة ضعيفة من الصلصال لا تتعدى 10 % . فضعف الانحدار يساعد على تركز الماء وانسيابه عموديا عوض أن يكون انسيابه أفقيا.

على الصخور الكلسية تحدث نفس الحالات، ونعمم على أن كل التربات المتواجدة عليها عدا التربة الحجرية Lithosol والتربة الكلس مغنيزية أو الشرساء Rendzine - هي تربات حمراء متوسطية صلصالية تعددية Fersiallitique ناتجة عن النزكلة المحلية الموضعية، إلا أنه نادرا جدا ما نجد تتابعا غطائيا في هذه التربات، وحتى المسكات او الآفاق السطحية تتعرض بشكل متوالي ومستمر لتشكل سطحي شريطي Pelliculaire نتيجة للتعرية المائية والسيلان الغشائي المتسبب المتبذر يؤدي نحو السافلة الى طمر الآفاق اوالمسكات الأكثر ثباتا.

إذا أخذنا الصخور الشيستية القديمة التي ينتج عنها كذلك تربات صلصالية حمراء تحددية نلاحظ على أن العامل المرفولوجي يلعب دورا هاما في تحديد بنية وسمك التربات أو بعبارة أخرى في تحديد درجات التترب وفي توزيع أهم التربات بالرغم من تواجد الفوارق الارتفاعية التي تحدد نوعا من التطور يخص كل مستوى مناخي معين. والملاحظ كذلك أن مورفولوجية السفوح تؤثر على طبيعة الغطاء النباتي الذي يؤثر بدوره على الغطاء الترابي، إلا أن طبيعة التشكال في صخور الشيست وطبيعة بنيته البتروغرافية تساعد على تجوية غير مكتملة يضعف فيها التحلل الكيميائي بينما يسيطر

فيها التفكك الميكانيكي، ولذا فإن سمك التربات دائما ضعيف، وتتعرض فيه التربات نفسها إلى عمليات تجدد مستمرة حيث تأخذ عمليات التشكيل أهمية كبرى على عمليات التترب.

إن توزيع التربات يخضع إذن الى مجموعة من العناصر والعوامل المتداخلة منها ماهو بيومناخي وماهو طبوغرافي وما هو ليتولوجي أو بيتروغرافي.

إنه في الوقت الذي نقوم فيه بتحديد مختلف التربات وتوزيعها إنما نحدد كذلك طبيعة الاشكال التضاريسية الصغيرة جدا التي بفعل تخلقها نتجت التربات سواء كان ذلك كيماويا أو ميكانيكيا. فهذه الديناميكية المرفو ـ ترابية في إطار ماذا تدخل، هل في إطار التترب أم في إطار التشكال ؟

الوسط العام وسط شبه ثابت لا يمكننا تحديد فترات التترب ولا فترات التشكيل فيه. قد يبدو الأمر سهلا إذا ما أضفينا على الفترات التي تكون فيها عوامل التعرية جد هامة بأنها فترات تشكيل. لكن هل فترات التشكيل مرتبطة فقط بعمليات التعرية المرئية أم هناك فترات أخرى تكون فيها التعرية غير مرئية وتتطلب وقتا طويلا ؟ وهل يمكن تحديدها في إطار التترب أم التشكال ؟ إذن هناك عمليات تشكيل مرئية عابرة واضحة وأخرى ترتبط بعمليات التترب التي تحدث في الخفاء أو بعبارة أخرى عمليات تتطلب مدة زمنية غير معروفة وحتى بواسطة العمليات المخبرية لن نحدد مداها الزمني.

إذا حاولنا دراسة منطقة ما في إطار دراسة مرفو ـ ترابية فهل يجب التركيز على عنصر دون آخر أم أخذهما معا في إطار التحليل العام مع التركيز على التكوينات السطحية والتربات التي تعبر من خلال المسكات على أنه هناك تطور تشكالي ـ ترابي، خصوصا إذا تعلق الأمر بتربات ذات مقطع ترابي متغاير من ناحية تركز الكلس، أو تركز الصلصال أو الحديد ؟

في إطار هذه المقاربة المرفو ـ ترابية، كارطوغرافية الوسط المرفو ـ ترابي لا توحي إلا بارتباط الوسط الترابي بنوع الصخرة الأم مع إشارات الى نوع التعرية المتواجدة أكان ذلك على شكل أخدودي أو متبذر تشكل في آن واحد الوسط المرفو تشكالي.

إن الخرائط المرفو ـ ترابية تتطرق فقط للتربات المتواجدة، والعناصر التعروية وطبيعة التشكال السطحي بينما إذا أدخلنا عليها نوع الانحدارات وطبيعة الغطاء النباتي فهل سنعتبرها فعلا ودائما خرائط مرفوترابية ؟ خصوصا إذا اعتبرنا هاذين العنصرين الأخيرين فعالين في مرفو ديناميكية التكوينات السطحية والسطح بشكل عام، أم نحدد الاطار الكارطوغرافي في إطار دراسة مندمجة تخص جميع العناصر المرتبطة بالوسط الطبيعي ؟

إن هذه الديناميكية المرفو ـ ترابية غالبا ما يجب تحديدها حسب الاطار المرغوب التعمق فيه بالدرس : إما في إطار التترب أو التشكال من جهة، وحسب طبيعة الديناميكية التي يمتاز فيها وسط طبيعي عن آخر. إن النطاق المتوسطي يشكل حاليا وسطاً شبه ثابت لا يمكننا تحديد فترة التترب من فترة التشكال، اللهم إذا اقترنت التعرية التي نشاهدها حاليا على أنها فترة التشكال وفترات ثبات الوسط الطبيعي بأنها فترة التترب، فهل نربط عمليات التشكال بالتعرية المرئية المرتبطة بانجراف التربة أو بالمهيلات أم أن التشكال هي كذلك تلك العمليات الغير مرئية الموازية لعمليات التترب والتي تتطلب مدة زمنية غير معروفة. إذن إذا كانت هذه الازدواجية مترابطة فكيف تتم كرطوغرافيتها، فعاديا التحديد الكارطوغرافي لمرفو ـ ترابية الوسط الطبيعي تركز على ربط الوسط الترابي بنوع الصخرة الأم مع إشارات الى نوع التعرية المتواجدة التي تشكل في آن واحد طبيعة المرفو تشكالية.

ـ فهل يجب إدماج خريطة الانحدارات والاطار البيومناخي في الكارطوغرافية المرفو ـ ترابية حتى نتمكن من معرفة ديناميكية الوسط الطبيعي ؟ أم نقتصر فقط على التربات وتوزيعها حسب الصخور ونوع الانحدار ؟.

نجد أنفسنا مضطرين الى خوض الغمار في الدراسات المندمجة التي تجعل من الوسط الطبيعي وحدة متكاملة تتداخل فيها كل العناصر المتعامل معها.

الطيب بومعزة

المراجع :

BOUMEAZA Taïeb (1985) Le massif des Béni-Snassen centraux (Maroc oriental) Approche morpho-pédologique d'une moyenne montagne méditerranéenne. Thèse de 3e cycle. Toulouse

DOLLFUS O. BERTRAND G. (1973) Essai d'analyse écologique de l'espace montagnard. Esp. Géogr. n° 3 pp. 165-170

DUCHAUFOUR Ph. (1977) Pédologie, tome 1: Pédogénèse et classification. Ed. Masson

GAUCHER G. (1972) Contribution de la géomorphologie à la prospection pédologique. Ann. Geogr. n° 448, pp.697-710

JAMAGNE M. et Al. (1977) La cartographie des sols, élément fondamental de l'aménagement et de la conservation de l'espace rural. Pédologie XXVII n° 309-310

دينامية الوسط في البحث الكارستي
(طرق القياس الكمية)

أقديم ابراهيم
كلية الآداب
فاس.

مقدمة :

تغطي المناطق الكلسية مساحة كبيرة في مختلف أنحاء المغرب، وترتبط بها ظواهر رئيسية ومميزة ـ كارستية، تتطلب اهتماما اكبر من طرف الباحثين في الجغرافية الطبيعية، وهذا يطرح بالحاح مشاكل منهجية على مستويات مختلفة.

فكيف تساهم طرق البحث الكارستي في تعريف دينامية الوسط ؟

وما هي مكانة هذا التوجه في البحث الجغرافي عامة.

1) مكانة البحث الكارستي : إشكالية المنهجية :

يواجه البحث عن طرائق العمل في الجغرافية الطبيعية طروحات تبدو وكأنها متناقضة في ظاهرها، يأخذ بعضها توجها كليا وإجماليا سواء في حدود الموضوع أو في حدود المجال المتغيرة.

ويتخذ بعضها توجها يكون محوره الرئيسي بحثا عن عناصر المجموعة، وبكيفية مفصلة وتجزئية، وبعد العنصر تعريف الأساليب التفصيلية المتحكمة في صيرورة وتطور مختلف العناصر والبحث عن علائقها المتعددة ـ المتغيرة.

هذه الطروحات المختلفة : كلية ـ تفصيلية ـ وصفية ـ تحليلية أو كيفية ـ كمية هي توجهات أساسية متكاملة، لا تستغني عن طرف منها الأبحاث الكارستية.

بما أن الهدف النهائي هو الفهم العميق لمكونات الوسط وتفاعلاتها. فإن هذا العرض الموجز يرتكز على تقديم أفكار عن طرائق العمل الكمي في دراسة المناطق الكارستية، دراسة مفصلة هدفها ضبط دينامية الوسط العام اعتمادا على الدراسة المفصلة للأساليب والعناصر المؤلفة.

فالماء عنصر نشيط والتعريضة الكيماوية المرتبطة به أسلوب رئيسي في تغيير ملامح المنطقة الكارستية ومحيطها بسرعة متفاوتة، يمكن ضبطها ولو بكيفية تقريبية بالقياس والتحليل الهيدروكيماوي أو بكيفية تجريبية باستعمال الصفائح الكلسية النموذجية.

2) التحليل الهيدروكيماوي :

إذا كانت فائدة العمل بهذه الطريقة بالغة ومؤكدة، فمن الصعب إثبات الدقة المطلوبة في كل الحالات نظرا لما تتطلبه من جهد كبير متواصل، ومعرفة متقدمة لعدد من العلوم التكميلية (الكيمياء

وعلوم الأرض) فانطلاقا من قياس وتحليل عينات مائية تغطي فترة زمنية طويلة(دورة هيدرولوجية كاملة على الأقل) وتهم عدة نقط مائية يكون اختيارها مقصودا وناتجا عن تفكير عميق، يكون في المتناول، معطيات كثيرة عن بنية الماء.

بما أن كل تحليل يعطي وزن العناصر الكيماوية المتواجدة في لتر واحد من الماء (بوحدة الملكْرام أو المليمعادل في اللتر) وهو تعبير ذو دلالة زمنية بما أنه يميز فترة أخذ العينة بالذات، وقابل للتغير خارجها، وفي هذا تأكيد على ضرورة تعدد التحليلات وتقاربها قدر الامكان، لكي يسمح تأويلها بتتبع تطورها وعلاقات مختلف العناصر في تطورها مع الوسط الخارجي والوسط المزود لها، ومقارنة منحنياتها التطورية مع التوزيع المطري للفترة المناسبة (الشكل رقم 1) ويسمح تأويل هذه التحليلات بتحديد علاقة تزايد او تناقص التركز المعدني في الماء من عالية النهر نحو سافلته، او من باطن الكتلة الكلسية نحو مخرج الماء إذا تعلق الأمر بحوض هيدروجيولوجي يغذي نبعا أو مجموعة ينابيع.

ومن جهة ثانية فإن قياسات بنية الماء في عين أو مخرج حوض نهري لا تعطي في البداية فكرة دقيقة عن الكمية المزالة في مساحة حوض التغذية بما أن جزءا لابد من ضبطه يكون واردا خارج الحوض بواسطة المطر والمياه المتسربة من أحواض مجاورة، وهذا يطرح بالحاح ضرورة إنجاز تحليلات تكميلية لاستكمال الفكرة عن أهمية تلك الموارد الخارجية، وبعدها تجوز محاولات تقرير الميزانية الهيدروكيماوية.

وهكذا ينبني تأويل المعطيات الهيدروكيماوية على تقرير الكميات الاجمالية والتفصيلية للعناصر الصخرية المذابة، سواء بكيفية تطورية عبر الزمن أو جمعية إذا استهدف التأويل معرفة حجم المنقولات إجمالا، أو بكيفية ظرفية إذا كان الهدف اختبار عدوانية الماء أو درجة إشباعه.

الشكل رقم «1» هيدروكيماء واد دادس ونبع أيت إبريرن (نقط)

1980 ـ 81 (جنوب الأطلس الكبير الكلسي)

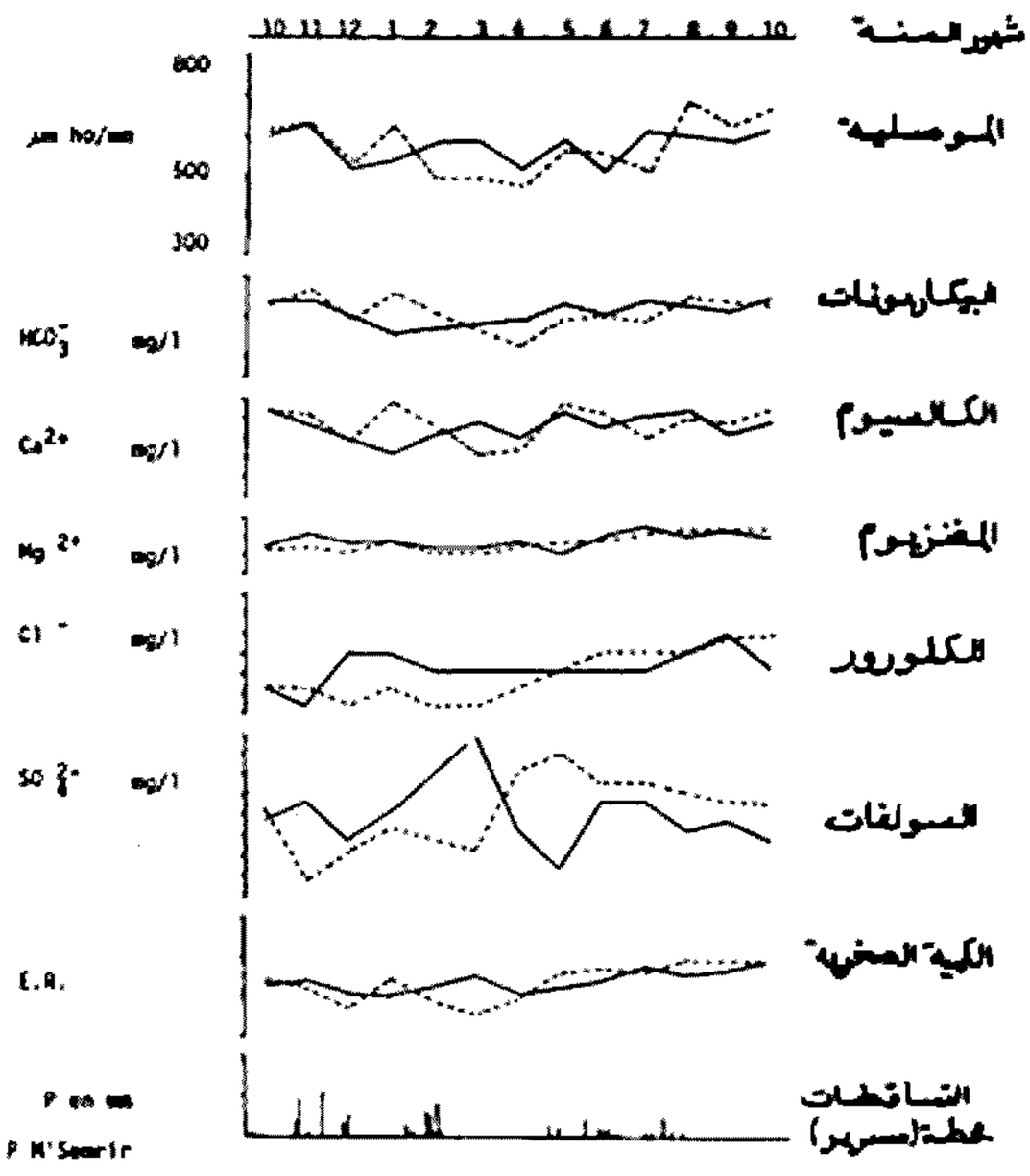

من المحلولات المعدنية (الشكل رقم 2)

3) طريقة الصفائح الكلسية النموذجية : طريقة تجريبية :

تسمح هذه الطريقة بتقييم ضغط التعرية الكيماوية على الوسط بكيفية تجريبية، وذلك اعتمادا على حصى صخري أو صفائح مكعبة الحجم يتم وزنها بدقة، ثم تعريضها لعوامل التعرية المختلفة، وخاصة المياه الجارية ومياه المطر، وبعد فترة يتحدد طولها حسب إشكالية البحث، يمكن استنتاج الكمية المعرضة للزوال (بالاذابة) انطلاقا من عملية وزن ثانية تسمح بالمقارنة، وتراعى في استعمال الصفائح نوعية الصخر المزمع اختباره، إذ يستحسن أن يكون كلسيا صافيا أو على الأقل من فصيلة الصخور السائدة في المنطقة المدروسة.

كما تراعى في توزيعها شروط الطبغرافية والارتفاع والمكرومناخ وتأثير الوسط الترابي والبيولوجي، لأنها عوامل من شأنها تغييز النتائج بصفة ملحوظة، ولا توزن العينات الصخرية إلا بعد تنظيف الشوائب الترابية أو الخارجية التي يمكن أن تلحقها، وبعد غسل بالمياه الصافية وتجفيف بزيل تماما تأثير الرطوبة على الوزن.

وتسمح هذه الطريقة بضبط فاقد الوزن بوحدة الغرام في المتر المربع ومقارنة نتائج مختلف الشهور والفصول ومختلف الأماكن والعوامل المؤثرة. على أن هناك صعوبات تعرقل دقة الحصيلة على المستوى التفصيلي والمجهري، منها ما هو مرتبط بتاثير عمليات تحضير الصفيحة أو المكعب الصخري على قابليته للذوبان لأن تقطيع المكعب يولد حرارة محلية وتسطيحا أملس على الجوانب، مما يدعو الى الحذر لأنها شكليات قد تكون مؤثرة على سرعة الاذابة كما أن مسؤولية التعريضة الميكانيكية واردة جزئيا، ويصعب تحديد تأثيرها في وسط مائي مليىء بالاحتكاكات المختلفة أو في سطح خارجي تكون به الاصطدامات محتملة من مصادر مختلفة.

خاتمة :

رغم حدود طرق التحليل الكارستي المتعددة، فهي تعد مفيدة في التعبيرعن دينامية الوسط الطبيعي، وعن التغيرات التي يفرضها تدخل العوامل المحلية.

وهي بذلك وسائل تنبني على حوار مخبري - ميداني يضع في محك الملاحظة والنقاش خلاصات التأليف الأسبق. وفرضيات التأويل الأولى.

الشكل رقم : «2» منحنى وُك للتشبع

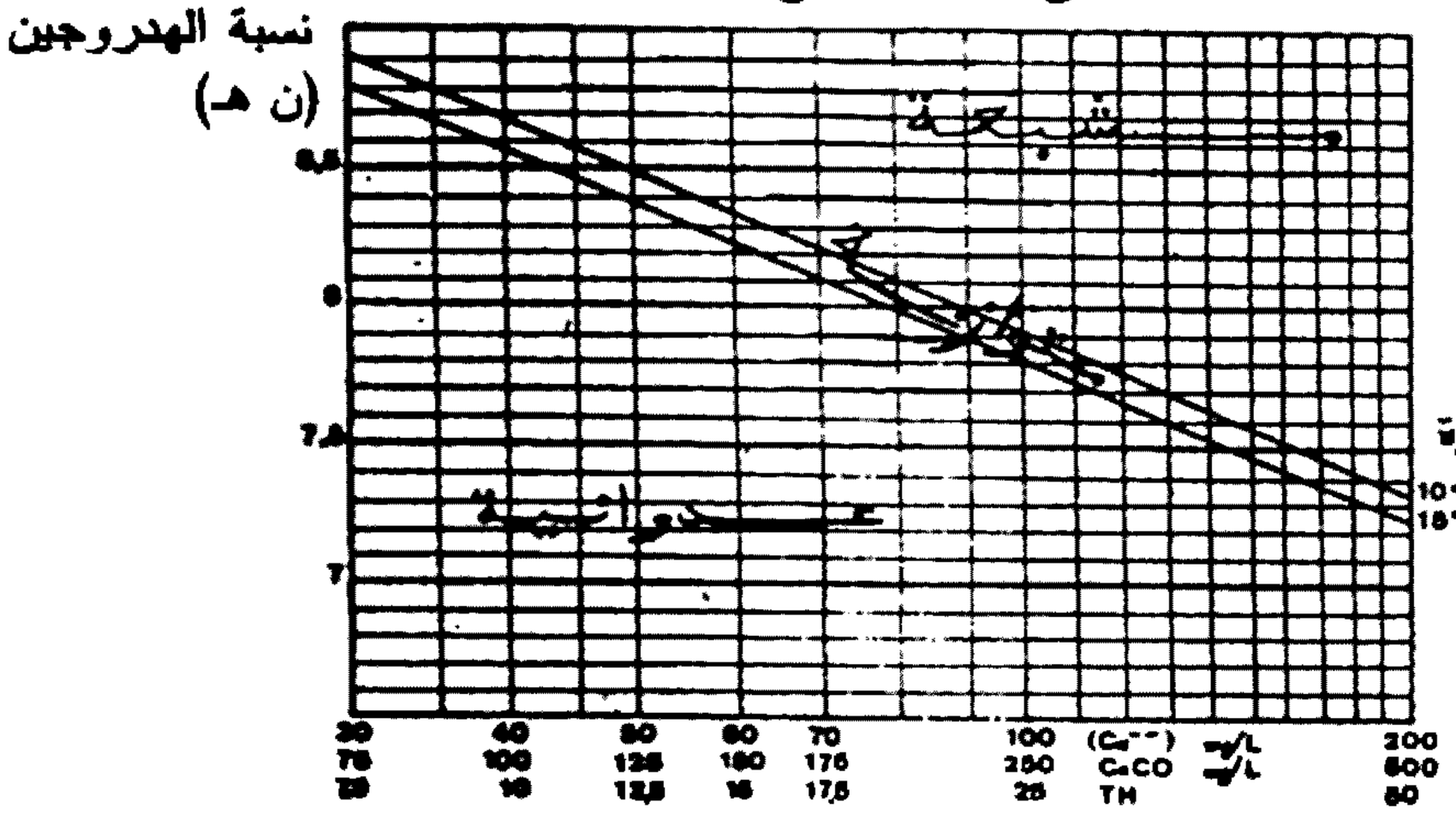

يعتمد هذا المنحنى على معطيات حرارية؛ معدنية ونسبة الهدروجين؛ ويسمح بترتيب مياه عَيْن أو عيون متعددة ومقارنة درجة الاشباع المميزة لكل نقطة مع غيرها.

المراجع

AKDIM, B. (1983) Cadre géoclimatique et érosion dans le Dadès et Todgha travaux de l'Era.282 du CNRS-AIX en provence.

BOCQUET F. (1985) Dynamique Karstique d'un Haut Massif Alpin la chaine des Aravis. Méthodologie et comparaison avec d'autres massifs. Annales de la SGB T. 108. p.203-207

BOGLI A. (1964) Corconion par mélange des eaux Int. jour. Speléo, 1.61.70

GORBEL J. (1961) Sur la dissolution du calcaire. Rev. de Géo. de l'Est. 4.363.365

E.K.C. (1969) Facteurs, processus et morphologie karstique dans les calcaires paléozonique de la Belgique, Th. Un. Liége

HAKIM B. (1982) Recherches hydrologiques et hydrochimiques sur quelques karst Méditerranéen Liban, Syrie et Maroc. Univ. Aix Marseille II 4 vol. 667 p.106 fig. 53 Tabl. 7 annexes. 6 cartes coul. h.t.

NICOD, J. 1972 Pays et Paysages du Calcaire PUF. Col. Sup.

ROQUES H. EK. C. (1973) Etudes expérimentales de la dissolution des calcaires par une eau chargée de Co2 Ann. spéléo . 28.549.563

TRICART J. (1965) Principes et méthodes de la géomorphologie-Paris 496 p.

الدراسات المندمجة في الجغرافية الطبيعية

محمد لبحر
كلية الآداب.
فاس.

مقدمة :

لقد ظلت الدراسات في الجغرافية الطبيعية ولمدة طويلة تدرس الوسط الطبيعي دون تحديد مفهومه ودون الأخذ بعين الأعتبار كونه وحدة متكاملة غير مجزءة. ونظرا لاستحالة ضبط الوسط الطبيعي في شموليته عن طريق جمع الدراسات الجيومورفلوجية والمناخية والبيوجغرافية والهيدرولوجية، فقد ظهرت مؤخرا دراسات حديثة تهدف من جهة الأخذ بعين الاعتبار كون الوسط الطبيعي وسط موحدا، ومن جهة أخرى تسعى الى التعرف على ديناميكية الوسط الطبيعي تبعا للعوامل المختلفة التي تتفاعل وتؤثر في ديناميكته. غير أنه لايمكن ضبط الوسط الطبيعي المدروس دون استعمال منهجية جغرافية خاصة تعطي الضمان الفعال لتحليل جغرافي جيد مع دقة في الملاحظة تكون نتائجها أكثر فعالية في معرفة إمكانية إعداد الأوساط الطبيعية مجاليا. وكل تحليل آنذاك، وكل وصف يدخل في نظام يسمح بشرح متناسق للوسط الطبيعي.

وهكذا، بدأ العديد من الجغرافيين الطبيعيين في محاولة بلورة مناهج جديدة لدراسة الأوساط الطبيعية، تنضوي كلها تحت ما يسمى بالدراسات المندمجة. غير أن هذه المناهج تعددت، وذلك حسب الأهداف التي تتوخى الوصول إليها، وكذا حسب الرسائل والتقنيات التي تعتمد عليها في دراستها. ويمكن تقسيمها الى ثلاث مناهج رئيسية :

I ـ الدراسة المندمجة الوصفية :

تعتبر هذه المنهجية المحاولة الأولى التي ظهرت في دراسة متكاملة للوسط الطبيعي. وتهدف الى التعرف على خصائص الأوساط الطبيعية قصد استغلالها بشريا وهي منهجية تصلح فقط بالنسبة للأوساط الغير المدروسة جغرافيا، قصد تحديد خصائصها الطبيعية قبل استغلالها طبقا لمؤهلاتها الطبيعية.

تعتمد هذه المنهجية على الصور الجوية أساسا. ومن خلال تأويلها، مع دراسة ميدانية محدودة، تتوخى هذه الدراسة استخراج مجموعة من الخرائط ذات صبغة مضهرية. والخرائط المستنبطة تسعى الى إبراز مختلف المظاهر الجغرافية مقسمة الى وحدات كارطوغرافية ذات مقاييس متعددة. وتنقسم الوحدات المميزة لهذه الخرائط الى 3 أصناف حسب المقياس :

1 ـ أنظمة الأراضي Système de terre

وهى ذات مقياس صغير، وتعادل الاقليم الطبيعي، وتتمثل في الوحدات البنيوية الكبرى.

مثال : سهل ساحلي يشمل مجموعة من الدلتات، ومستنقعات، وشاطيء قديم، وأشرطة رملية كلها تدخل ضمن نظام أرضي واحد.

2 ـ تأتي بعد هذه الوحدة الكبيرة، وحدات الأراضي Unités de terresبمقياس متوسط، حيث أنواع التضاريس المميزة لأنظمة الأراضي هي المشكلة لهذه الوحدات. مثلا في هضاب متقطعة، تكون وحدات الأراضي الممثلة هي التالية : بقايا سطوح الهضبة، الأودية المتعمقة في الهضبة، والتلال الشاهدة في مقدمة الهضبة.

3 ـ صفيحات الأراضي : Facettes de terre

وهي الوحدة الصغيرة في التصنيف، ذات المقياس الكبير. وتمثل اساسا عناصر التشكيل كلحج سفح مثلا أو الجزء الحضيي في أسفله.

غير أن هذه المنهجية تبقى مجرد جزء لمعطيات كثيرة دون إعطائها الطابع الشمولي المميز لها داخل الوسط الطبيعي. ولهذا، فهي في نهاية المطاف تبتعد عن المنهجية المندمجة التي تعتمد عليها كأداة في الدراسة. كما أنها تبدو وصفية منها تحليلية، إذا تلتقي في النهاية مع الدراسات التفعيلية بعيدة عن كل وصف شمولي. والمنهجية هاته، تمكن فقط من التعرف على مظاهر السطح والمناخ والغطاء النباتي، أما باقي عناصر الوسط الطبيعي فتستنتج من خلال تأويل الصور الجوية، كخصائص التربة مثلا وأنواع الصخور... هذا، وإن اعتماد هذه المنهجية على الصور الجوية كأداة للعمل يفسر الطابع المظهري للدراسة، واستحالة التطرق الى ديناميكية الوسط الطبيعي التي تعتبر أساس كل اعداد صحيح للمجال الجغرافي.

II ـ الدراسة المندمجة المورفوديناميكية :

يعتبر J-Tricart رائد المنهجية المورفوديناميكية. وينطلق من كون التقدم الحاصل في معرفة الأوساط الطبيعية تفرض ضرورة إعطاء أهمية بالغة لمدى استقرار الأوساط الطبيعية. كما أن العنصر البشري الذي يمر حاليا بمرحلة حاسمة تشمل الضغط السكاني وتطور التقنيات، وتجعل منه يمارس ضغطا متزايدا على الوسط الطبيعي، من هذا المنطلق، فإن دراسة الأوساط الطبيعية تقتضي دراستها من وجهتين أساسيتين :

1 ـ يجب التعرض على مدى قدرة مقاومة الأوساط الطبيعية أمام التدخل المكثف للعنصر البشري. كما يجب التعرف على التغيرات والديناميكية التي مر بها الوسط الطبيعي خلال الزمن.

2 ـ إن الأوساط الطبيعية هي في طريق التأقلم مع ظروف عرفت تغيرات كبيرة. وحسب الظواهر المتحكمة في ديناميكية هذه الأوساط، فإن تكيفها يبدو مختلفا حسب نوع وطبيعة العوامل المتحكمة في ديناميكيتها.

من هاذين المسلمين، يرى Tricart بأن المنهجية المورفوديناميكية (الايكو ـ جغرافية) التي يتبناها يجب أن تمر عبر مرحلتين :

1 ـ دراسة خصائص البنية للأوساط الطبيعية في شكل نظام :

إن الوسط الطبيعي عبارة عن نظام مفتوح وغير مستقر. وهو يشكل نقطة التقاء بين الغلاف الجوي والغلاف الصخري والغلاف المائي والغلاف الحيوي. وعند هذا الالتقاء تتم نشأة التربة، كما يتم نحن التشكيل وتطور التضاريس. وهنا أيضا تتكون التشكيلات السطحية الناتجة عن التغيرات التي تطرأ على التشكيلات الجيولوجية في اتصال مع الجو والماء والغازات التي يحتوي عليها. أما النباتات فهي تتكيف مع ظروف الوسط الطبيعي : تأخذ الاشعاعات الشمسية التي تمدها بالطاقة الضرورية لها، كما تقوم بجلب العناصر المعدنية من الماء المتجمع داخل التربة.

من هنا يتضح أكثر بالنسبة لـ Tricart على أن الوسط الطبيعي يشكل نظاما متكاملا. وكل عناصره تتفاعل فيما بينها، وتؤثر في بعضها البعض، ومن ثم فهي تمكن من طرح مشاكل إعداد المجال في محيطنا الايكولوجي. كما تمكن من ربط الجغرافية الطبيعية بعلم البيئة الذي يهتم فقط بدراسة الجانب الحيوي داخل الأوساط الطبيعية.

2 ـ تصنيف الأوساط الطبيعية :

إن تصنيف الأوساط الطبيعية يجب أن يعتمد على مدى النشاط التشكالي الذي يعتبر العامل المحدد في إعداد هذه الأوساط مجاليا. كما يجب الأخذ بعين الاعتبار نسبة استقرار أو عدم استقرار هذه الأوساط. ومن ثم، فتحديد أنواعها يجب أن ينطلق من أفقين :

أ ـ الأفق التسلسلي الزمني : الذي يعتبر ضروريا، ويجب أن يعتمد على تصنيف زمني للديناميكية العامة للأوساط الطبيعية :

ـ والظواهر الحالية يجب أن توضع في هذا الأفق حتى يمكن تمييزها بشكل مضبوط. هذا الأفق يتطلب فترة زمنية طويلة تقدر بآلاف السنين، تمكن من التعرف على التغيرات التي طرأت على الأوساط الطبيعية، كالتعرف الجيد مثلا على الخصائص القديمة للغطاء النباتي انطلاقا من دراسة طين اللقاحات المتجمعة في المستنقعات أو البحيرات أو التربة. كما أن التشكيلات السطحية وأنواع التشكال المرتبطة بها تبرز التغيرات الديناميكية للأوساط الطبيعية والتي يجب ربطها بشكل الغطاء النباتي.

ـ غير أنه يجب كذلك دراسة الأفق الزمني في مدة زمنية قصيرة، تحدد مع التدخل البشري. وهنا يجب التطرق بالأساس الى مظاهر التدهور بأشكالها (حرائق مثلا، اجتثاث، رعي جائر، زحف الصحاري...).

ومن خلال هذه الدراسة التسلسلية نتوصل الى معرفة ما إذا كانت الخصائص المورفوديناميكية الحالية قديمة أو حديثة. ومن ثم نميز بين الأوساط المستقرة حاليا ذات نشاط تشكالي ضعيف والتي كانت غير مستقرة قديما. والأوساط الغير المستقرة حاليا بعد أن كانت مستقرة قديما. ثم الأوساط الغير المستقرة حاليا بسبب التدخل البشري.

ب ـ الأفق المورفوديناميكي :

وهنا يجب الانطلاق من دراسة الأنظمة التشكالية للأوساط الطبيعية، مع التطرق الى العوامل المحددة التي تحول دون نشاط عملية التشكال. فالغطاء النباتي الكثيف في وسط طبيعي معين مثلا، يلعب دورا مهما في عملية التترب، وتفسخ الصخور، دون أن تتدخل عوامل نقل هذه المواد إلا بشكل محدود جدا. إذن، فدراسة التعرية وديناميكيتها مهمة جدا لاظهار العقبات التي يبديها الوسط الطبيعي أمام استغلاله بشكل عقلاني.

إن التقسيم المورفوديناميكي للأوساط الطبيعية يجب أن يجمع بين الأفقين معا. وهكذا، وعن طريق تحديد نسبة استقرار الأوساط الطبيعية، ومعالم عدم استقرارها طبقا لاختلاف الأنظمة المورفوديناميكية، نكون قد حصلنا على منهجية ناجعة في تصنيف الأوساط الطبيعية :

1 ـ الأوساط المستقرة :

وهي المتميزة بأنظمة تشكالية تقل فيها الطرق الميكانيكية، وتتميز بكون ميزانية التترب/ التشكال إيجابية وفي صالح عملية التترب. ديناميكية هذه الأوساط بطيئة جدا ومتوازنة تتجه نحو الذروة.

2 ـ الأوساط الغير المستقرة :

وهي أكثر تعقدا، وتتطلب التعرف على العوامل ومظاهر عدم استقرار هذه الأوساط التي تتميز بتعديل مهم لسطحها الطوبوغرافي سواء بشكل سريع أو متواصل. والتعديلات التي تطرأ على السطح الطبوغرافي هي التي تشكل العامل البيئي المحدد لهذه الأوساط. هذا، وإن عدم الاستقرار يمكن أن يرجع الى عوامل متعددة : حركات بنائية عنيفة مثلا، تضاريس ناتجة عن تطور تشكالي خلال ملايين السنين، أو ظروف بيومناخية حالية غير ملائمة.

3 ـ الأوساط الشبه المستقرة نسبيا :

وهي التي توجد بين الأوساط المستقرة والأوساط الغير المستقرة. وتتميز بتعاقب لعملية التترب

وعملية التشكال، دون سيادة علمية على الأخرى. في هذه الحالية، تكون خصائص وديناميكية الوسط الطبيعي متنوعة، ولا يمكن تقسيمها بطريقة مبسطة. كما أن التغيرات الصغرى يمكن أن تلعب دورا هاما في هذه الأوساط. لنأخذ مثالا نموذجيا يخص منطقة الساحل الافريقي. نلاحظ أن التغيرات المناخية ذات المدى القصير، والجفاف الذي عرفته هذه المنطقة يعطي مثالا حيا لذا وجب التركيز على هذه الظاهرة في المناطق الشبه الجافة.

في هذه الأوساط يكون الاعداد جد صعب، ويتطلب استعمال منهجية خاصة، مبنية على دراسات كثيرة، وتعتمد على علوم متداخلة. وتدخل ضمن هذه الأوساط كلا من المناطق المتوسطية، ومنطقة الاستيبس والمناطق المدارية ذات الصيف الجاف.

مما سبق ذكره، يتضح أن المنهجية المورفوديناميكية تبقى قصديتها جيومورفلوجية محضة. ومن هناك فهي تعتبر عملية التشكال أساس كل تدخل جغرافي من أجل إعداد أفضل للأوساط الطبيعية.

أنها تقسم الأوساط الطبيعية دون تحديد مفهومها، ودون الأخذ بعين الاعتبار المقياس في تنوع ديناميكية الأوساط الطبيعية.

أنها تعتمد على المورفوديناميكة في التمييز بين الأوساط المستقرة والأوساط الغير المستقرة. وفي الحقيقة فإن الديناميكية لاترتبط فقط بالتربة الميكانيكية، فهي أيضا ديناميكية كيماوية وترابيةلا وبيوجغرافية.

III ـ الدراسات الجيو منظومية :

وهي المنهجية في الجغرافية الطبيعية الموازية لمنهجية البحث في علم البيئة. ويعتبر G.Bertrand مؤسس هذه المدرسة في فرنسا. ينطلق هذا الأخير من كون التقدم الذي عرفه علم البيئة والذي يهتم بدراسة الجانب البيولوجي للأوساط الطبعية راجع الى تحديد منهجية المنظومة البيئية كإطار في دراستها. ومن ثم، فتطور الجغرافية الطبيعية يقتضي إتباع منهج جغرافي... عبر مفهوم مجرد يمكن من تحديد موضوع ومنهجية الدراسة للوسط الطبيعي.

ينطلق G.Bertrand من أن الجغرافية الطبيعية كهيكل علمي غير موجودة حاليا للأسباب التالية :

1 ـ لأنها ليست شيئا كليا، بل تتفرع الى مجموعة من الفروع المختلفة ذات مواضيع متعددة، وقعديات متنوعة، وذلك ناتج عن غياب منهجية موجهة لها.

2 ـ لأنها ليست جزءا من الجغرافية ككل. لأن هذا يفترض أن هذا الكل (علم الجغرافية) يجب أن يكون متناسقا، وهو الذي يشكل مدمجا للمعطيات الطبيعية.

3 ـ الجغرافية الطبيعية التي تسعى الى دراسة الوسط الطبيعي، ماهي سوى صورة ملصقة بمواضيع الدراسة، كالجيومورفلوجيا، المناخية، البيوجغرافية... وتكتفي حاليا بجمع معلومات متفرقة من حيث الأهداف والمقاييس الزمانية المكانية.

4 ـ عدم البحث في موضوع منهجية الدراسة في الجغرافية الطبيعية، مع الخلط الحاصل حاليا بين تقنية (المختبر، الميدان، الادوات...) من جهة، ومناهج البحث من جهة ثانية.

5 ـ أخيرا، إن استقلال الجغرافية الطبيعية يبقى غير واضح وغير مبني على المستوى النظري والتطبيقي معا. ولا يمكن ذلك إلا عبر منهجية ترتكز على موضوع الدراسة وأهداف الدراسة، تنظم حولهما الأبحاث. إذ ليست المنهجية هي التي تعرف بالموضوع، ولكن هذا الأخير هو الذي يشرح المنهج المتبع.

ومن هذا المنطلق، فإن هيكلة الجغرافية الطبيعية تتطلب من جهة استقلالها على مستوى المفاهيم والمناهج، ومن جهة ثانية، استقلالها عن العلوم الأخرى المرتبطة بها. ولا يمكن أن يتم ذلك

إلا عبر استقلال على مستوى المنهج. غير أنه ليست هناك منهجية بدون موضوع دراسة وبدون قصدية.

1 ـ موضوع وقصدية الجغرافية الطبيعية :

ـ الموضوع هو المجال الجغرافي الطبيعي :

إن نقطة الانطلاق هي الموضوع في حد ذاته وفي جملته. غير أن الجغرافية الطبيعية تدرس فيما قبل موضوعا دون اسم محدد، فهو تارة مظهرا طبيعيا، وأخرى محيطا طبيعيا. إلا أنه لتسمية موضوع ما يجب تصوره أولا، ثم هيكلته فيما بعد ليكون نموذجا وحيدا وعالميا. هذا، والمجال الجغرافي الطبيعي الذي يشكل موضوع دراسة الجغرافية الطبيعية يجب تصوره أولا بكونه منظومة جغرافية. فهويعرف انطلاقا من كونه يتمثل في الالتقاء والتداخل بين الأحجام الكبرى الأولية، بما في ذلك الصخور، المياه، الهواء والمعجم الحياتي. وهذه الأحجام تتميز بكونها متنوعة ومختلطة، تظهر عند التقائها الأشكال الجغرافية، سواء أكانت حية (غطاء نباتي، تربة) أو غير حية (تشكيلات سطحية)، لتأخذ شكل غشاء بين مختلف الأحجام. والجغرافية الطبيعية لا يجب عليها الاكتفاء بوصف وتصنيف الأشكال، بل عليها أن تأخذ بعين الاعتبار الظواهر المميزة للأحجام نفسها. ذلك أن هذه الأخيرة، لها مدة عيش تفوق بكثير ظواهر الالتقاء. ومن ثم فهي تلعب دورا هاما في تطور أو استقرار المجال الجغرافي، كما أن ذاكرتها تحتضن ذاكرة ظواهر الالتقاء.

يقول G.Bertrand، أن هذا التأويل الذي يأخذ طابعا حجميا وديناميكيا للمجال الجغرافي الطبيعي يمكن من دمج البنية والديناميكية معا. وهكذا يتضح على أن المجال الجغرافي الطبيعي هو ناتج عن الزمن، بما في ذلك التدخل البشري والتعديلات التي يفرضها عليه.

وهكذا يظهر موضوع الدراسة في الجغرافية الطبيعية، ألا وهو المجال الجغرافي الطبيعي. وهو :

مجال متكامل، لا يمكن دراسته إلا في تصوره العام.

مجال ديناميكي ومنظم يضمن تطوره الخاص به.

مجال يتكون من أحجام وكتل مختلفة تتكون عند التقائها أشكال وظواهر جغرافية متنوعة. ومن ثم فهو عبارة عن نظام متناسق، يمتد في الأبعاد الثلاثة للمجال.

أخيرا، يتميز هذا المجال بكونه جد متأثر سواء في بنيته أو وظيفته بالتدخل البشري.

ب ـ قصديات البحث :

ينطلق G.Bertrand من المسلحة التي تجعل من الجغرافية الطبيعية جزء من الجغرافية. ومن ثم فهي تقبل ضمنيا بأن لها قصديتان :

أ ـ القصدية الطبيعية :

تقوم الجغرافية الطبيعية بدراسة المجال الجغرافي الطبيعي في حد ذاته ولذاته، قصد التعرف على بنيته وديناميكيته. وهذه القصدية الطبيعية ضرورية، وعليها يتوقف استقلال الجغرافية الطبيعية. غير أن هذا الاستقلال يجب أن ينظم بطريقة تختلف عن تلك الممارسة فيما قبل من طرف الجغرافيين الطبيعيين الكلاسيكين :

فدراسة موضوع المجال الجغرافي الطبيعي يجب أن يتم انطلاقا من كونه يشكل نظاما خاصا.

الدراسة التفصيلية الطبيعية تأتي فيما بعد، وتستند على الدراسة المنظومية التي تشكل نقطة التقاء كل الجغرافيين الطبيعيين.

ب ـ القصدية البشرية :

وهنا يجب أن تدخل الجغرافية الطبيعية الى الحقل البشري. إذ أن المجال الجغرافي يعرف عن طريق التدخل والاستغلال البشري.

إن الانتاج هو الذي يجعل من المجال الطبيعي مجالا جغرافيا. غير أنه لا يجب أن ننسى بأنه

كيفما كانت طرق استغلال الوسط الطبيعي، فإنه يحتفظ بوظيفته الخاصة به، وفي جزء كبير مستقلة عن الأثر البشري (ميكانيزمات الجاذبية مثلا، وعملية التخليق الضوئي...).

2 ـ نموذج منهجي : المنظومة البيئية :

لكي ترتقي الجغرافية الطبيعية الى مستوى وضع منهجية تمكنها من تحديد هويتها العلمية سواء بالنسبة للجغرافية ككل أو بالنسبة للعلوم الأخرى، يجب الأخذ بعين الاعتبار المبادىء التالية :

لن وضعها الطبيعي داخل علم إنساني ليس نقصا، ولكنه على العكس من ذلك يمكنها من الإنفتاح على الحقل البشري البيئي.

يجب خلق مفهوم تصوري، وشمولي يشرف على تنظيم الدراسات التفصيلية، حتى تتمكن هذه الأخيرة البقاء في إطارها الجغرافي، دون الانزلاق في اتجاهات أخرى.

إن المنهجية في الجغرافية الطبيعية تنشأ من فهم وتفصيل المجال الجغرافي الطبيعي. فعوض مجموعة من المفاهيم كوسط أو مجال أو مظهر جغرافي، يجب تعويضه بمفهوم آخر بمعنى تمثيل شامل ومجرد يكون ذو قيمة عالمية. هذا المفهوم هو المنظومة البيئية.

فتكون إذن المنظومة البيئية هي موضوع الجغرافية الطبيعية، وهي مفهوم طبيعي قصديته فهم بنية وظيفية النظام الجغرافي الطبيعي. وهو على مستوى مقياس محدد، يشكل حجما من المجال الجغرافي، وتتداخل فيه الكتلة الصخرية، الكتلة الهوائية، الكتلة المائية والكتلة الحياتية :

أ ـ عناصر المنظومة البيئية : 3 عناصر أساسية :

العناصر اللاحياتية : وتشمل الكتلة الصخرية، الهوائية، المناخ، المياه.
الحياتية : وتشمل الكتلة النباتية والكتلة الحيوانية.
البشرية : ويشمل نوعا من أنواع الاستغلال للمجال الجغرافي.

ب ـ بنية المنظومة البيئية : وتشمل :

1 ـ الآفق البيئي : Géohorizon : تتحدد البنية العمودية للمنظومة الجغرافية انطلاقا من تطابق لمجموعة من الآفاق البيئية. وهذه تتمثل في وحدات عمودية متجانسة، لا تشمل فقط طبقات الغطاء النباتي، ولكن أيضا مجموع الطبقات المكونة للمنظومة البيئية (الصخر، التربة بمسكاتها... الخ).

2 ـ الرقعة البيئية : Géofaciès

كل منظومة بيئية تتكون مساحيا من مجموعة من الرقع البيئية. وهذه تختلف عن بعضها البعض من حيث الظروف البيئية المحلية (مناخ مجهري، تربة، نبات...) من حيث الديناميكية. ولن ديناميكية هذه الرقع هي التي تحدد الديناميكية العامة للمنظومة البيئية.

جـ ـ ديناميكية المنظومة البيئية :

وتجمع كل أشكال الطاقات (الطاقة الشمسية، الجاذبية، حركة المياه....) التي تؤثر في بعضها البعض وتحدد الديناميكية العامة للمنظومة البيئية.

ويمكن التمييز بين 3 أنظمة ديناميكية داخل كل منظومة بيئية :

أ ـ النظام الجيومورفلوجي : ويشمل نظام التشكال بأنواعه.
ب ـ الديناميكية البيولوجية : التي تتدخل على مستوى التربة والغطاء النباتي.
جـ ـ نظام الاستغلال البشري : الذي يلعب في بعض الأحيان دورا هاما سواء بتنشيط التربة، أو تغيير النبات والتربة.

أخيرا، يلاحظ G.Bertrand، أنه ليس هناك تناقض بين المنظومة البيئية والدراسات التفصيلية في الجغرافية الطبيعية، فالمنظومة البيئية ليست هي كل الجغرافية الطبيعية، فهي تشكل فقط المركز، ومن ثم تشكل كل من الجيومورفلوجيا والهيدرولوجيا، والمناخية، تحت أنظمة مستقلة عن بعضها البعض، ولكنها ترتبط بالمنظومة البيئية.

محمد لبحر

ملاحظات حول البحث الجغرافي في المغرب

يازغي مباشر محمد
كلية الآداب.
مكناس

إن البحث الجغرافي في المغرب كان ولا يزال يتأرجح بين النظري والتطبيقي، حسب الظروف المحيطة به، والتي كانت تختلف حسب الحقب. ويمكن القول، وبصفة عامة، أن هذا البحث، بعد الأهمية التي عرفها في مراحله الأولى في الفترة الاستعمارية، أصبح يعرف أزمة إثبات الذات وذلك بسبب تهميش الجغرافيين في دراسة مشاريع التنمية وإعداد المجال. وعدم تمكن هؤلاء من ولوج مجال البحث التنموي، والاقناع بأهمية العنصر الجغرافي، ودور الجغرافيين في كل الدراسات التنموية.

وسنحاول في هذا العرض إبراز خصائص البحث الجغرافي من خلال المراحل التي مر بها في المرحلة الاستعمارية والمرحلة الاستقلالية.

I ـ المرحلة الاستعمارية : البحث الجغرافي يحتل الصدارة من بين العلوم الانسانية الأخرى

منذ المراحل الأولى للاحتلال أولت السلطات الاستعمارية عناية خاصة للبحث الجغرافي ـ هذه العناية التي جعلته يحتل مكانة الصدارة من بين العلوم الانسانية الأخرى ـ وذلك بسبب حاجتها الى هذا البحث في تطبيق برنامجها الاستعماري سواء فيما يتعلق بغزو البلاد أو بتنظيم استغلال خيراتها، أو فيما يتعلق باتخاد القرارات السياسية. وكان اليوطي أول من وعى أهمية البحث الجغرافي في تحقيق الأهداف الاستعمارية إذ أبانت تجربته في مناطق أخرى (مدغشقر والجزائر) عن مدى فعالية تسخير معلومات وتحاليل البحث الجغرافي لغزو البلاد وتركيز دعائم الاستعمار ولذلك كان دائما يرحب بالبعثات «العلمية» والاستكشافية ويقدم لها كل السند والعون وكان يعتقد أن دور هذه البعثات لايقل أهمية عن دور الجيش والادارة في البرنامج الاستعماري. فالمعرفة الدقيقة للبلاد والعباد من خلال المعطيات الطبيعية والبشرية كانت دائما تمكن من تجديد استراتيجية الغزو وأحكام السيطرة دون أن يكلف ذلك خسائر كبيرة. وتجدر الاشارة هنا إلى أن البحث الجغرافي كان أهم مصدر للمعطيات التي تبني عليها الادارة الاستعمارية قراراتها وتحدد حسبها أسلوب إدارتها، ومن هنا الأهمية التي أعطيت للبحث الجغرافي. وتتجلى هذه الأهمية في تأسيس جمعية جغرافية المغرب «Société de géographie du Maroc» والتي كان اليوطي رئيسها الشرفي وساهم في تنشيطها عدد من العسكريين وكبار الموظفين في الادارة سهلت أعمال البحث بتوفير جميع الشروط اللازمة من مساعدات تقدمها مصالح الاستعلامات، وتشجيعات مادية، وكانت مجلة جغرافية المغرب الى جانب Hesperis من

أهم المجلات العلمية التي ظهرت في المغرب باللغة الفرنسية. كما أن البحث الجغرافي لم يكن يحظى باهتمام الاكاديميين والجامعيين فحسب بل إن جمعية جغرافية المغرب ومجلتها كانتا أكثر انفتاحا، وإن كان الاكادميون قد لعبوا الدور الأساسي في تنشيط البحث وبلورة الفكر الجغرافي، ويتجلى هذا الانفتاح في نشر مقالات كان يكتبها ضباط وموظفون سامون في الادارة الاستعمارية الشيء الذي جعل من هذه المؤسسة مؤسسة شبه رسمية، وتجدر الملاحظة هنا إلى أن العلاقة بين الجغرافيين والعسكريين، وخاصة في بداية الاستعمار، كانت وطيدة الى درجة أنه أصبح من الصعب الفصل بين نصيب الطرفين في تطور العمل الجغرافي وذلك بسبب تطابق عمل الجانبين وأن اختلفا في الاهداف. وفضلا عن هذا كان الجغرافيون يساهمون مساهمة فعلية في تكوين أطر الادارة الاستعمارية وفي هذا المضمار يقول رينال في تقديم كتاب جغرافية المغرب لجولي ما معناه «يجب أن يكون هذا الكتاب دليلا لكل المسؤولين الذين تهمهم المعرفة الدقيقة لمشاكل المغرب... وبإجماع ضباط الشؤون الأهلية، فقد تعلم هؤلاء عن سيلريي كيفية تطبيق نتائج البحث، ووضع العلم والتقنية في خدمة الانسان. «ومن هنا يتضح أنه كان هناك تجاوب بين الجهاز الرسمي الاستعماري والجغرافيين في المراحل الاولى للاستعمار. لكن بالرغم من هذا التجاوب فإن الأهداف كانت متباينة، فبينما كانت الادارة الاستعمارية تهدف الى إحكام سيطرتها على البلاد، كان الجغرافيون يسعون الى المعرفة الحقة للبيئة والوسط الطبيعي والبشري المغربي وتطوير مناهج البحث وبلورة فكر جغرافي متميز. وهذا الفرق سيتضح جليا في نهاية الثلاثينات وبداية الأربعينات عندما تتم التهدئة وتتغلب المصالح الاستعمارية على المنطق في التعامل مع الانسان والمجال خاصة عند التطرق الى مسألة الازدواجية في المجال.

وتتميز هذه الحقبة الجديدة بذهاب اليوطي عن المغرب، وتطوير علوم أخرى منافسة للجغرافيا، كالسوسيولوجيا والاتنوغرافيا والانتروبولوجيا والتاريخ، بتشجيع من إدارة الشؤون الأهلية التي أصبحت تعتمد عليها أكثر فأكثر في اتخاذ قراراتها. وأمام هذا الوضع لم يكد عزم الجغرافيين الذين أخذوا على عاتقهم مهمتين :

1 ـ تأكيد دور الجغرافيا وأهمية البحث الجغرافي ونتائجه العملية والتطبيقية بالنسبة للمشروع الاستعماري، وهكذا انصب البحث على الازدواجية في مختلف القطاعات (الفلاحة، الصناعة، المدن) ومخاطر تقسيم البلاد الى مغرب نافع وغير نافع. وكان هذا بمثابة تنبيه للسلطات الاستعمارية الى ضرورة تغيير سلوكها في التعامل مع المجال.

2 ـ مهمة إثبات هوية الجغرافيا أمام العلوم الانسانية الأخرى وخاصة السوسيولوجيا والانتروبولوجيا، فأكدوا أن الجغرافي وحده قادر على معرفة الأوساط والتحولات المجالية، وكانت البادية أخصب مجال لاثبات ذلك. إذ أظهروا من خلال الدراسات الدقيقة للبادية أن المنهج الجغرافي والمقاربة الجغرافية أولى بفهم هذا المجال الذي هو عبارة عن منظومة تتفاعل فيها عدة معطيات طبيعية وبشرية الشيء الذي لا يستوعبه غير الجغرافيين. والجغرافي وحده كفيل بفهم السلوكات والتفاعلات والعلاقات بين مختلف العناصر المكونة للمجال.

نستخلص من هذا أن البحث الجغرافي سواء في إطار جمعية جغرافية المغرب أو في إطار معهد الدراسات العليا المغربية تحول من أداة في يد المستعمر لاحكام سيطرته على البلاد الى أداة مناهضة للسلوك الاستعماري واستمر هذا الاتجاه، في مرحلة ما بعد الاستقلال، لدى الجغرافيين الأجانب الذين مكثوا بالمغرب والذين تميزت أعمالهم بالاهتمام المتزايد بالجانب البشري مع التركيز على نتائج الاستعمار.

II ـ مرحلة ما بعد الاستعمار وأزمة البحث الجغرافي

تميزت هذه المرحلة بظهور عدة عناصر جديدة لم تكن لتساعد على تطور البحث الجغرافي في المغرب.

خروج الاستعمار أدى إلى فراغ كبير في مختلف القطاعات وحاجيات كبيرة وملحة للأطر

على كل المستويات (صغيرة، متوسطة وعليا) فكان من بين اهتمامات الدولة تكوين الأطر لسد الفراغ الذي تركه الاستعمار ومواجهة الحاجيات المتزايدة للبلاد ومغربة مختلف القطاعات، وفي هذا الاطار تأسست عدة مدارس عليا وجامعة محمد الخامس التي تأسست ضمنها كلية الآداب والعلوم الانسانية والتي تضم من بين شعبها شعبة الجغرافيا والتي أنيطت بها مهمة تكوين الأطر التعليمية.

وإذا كانت من بين الأهداف المسطرة للجامعة دعم البحث العلمي فعمليا لم تكن تتوفر على الشروط والوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الهدف وتكوين جغرافيين محترفين «باحثين». وبقي الهدف الأساسي - منذ إنشاء كلية الآداب عموما وشعبة الجغرافيا خصوصا - هو مد التعليم الثانوي بالأطر التعليمية. ذلك أن ما يزيد عن 98/ من الطلبة كانوا - وحتى سنة 1970 - ينتمون في نفس الوقت الى المدرسة العليا للاساتذة.

وبما أن الهدف كان هو تكوين أساتذة التعليم الثانوي فإن البرامج أيضا كانت تستجيب لهذا الهدف إذ كانت ترتكز على جانبين أساسين.

1 - الجانب المعرفي ويتمثل في إعطاء المفاهيم الأولية لمختلف فروع الجغرافيا (جغرافية الأرياف، المدن، الصناعة، المواصلات، المناخ - المرفولوجيا....) وبعض الدراسات الاقليمية (جغرافية المغرب العربي، حوض البحر الأبيض المتوسط، الولايات المتحدة، أوروبا...). وهذه المواد كلها كانت تنسجم مع مقررات الجغرافيا في التعليم الثانوي.

2 - التركيز على الجانب الديداكتيكي والتربوي ويتجلى في ترويد الطالب على كيفية تهيء العروض وإلقائها بطريقة واضحة وتعزيزها بوسائل الايضاح الضرورية، كما أن ملاحظات الأستاذ كانت تركز على طريقة العرض ووسائل التبليغ أكثر من المضمون.

ويلاحظ من خلال البرامج والوسائل التعليمية غياب عدة عناصر من شأنها إعداد الطالب الباحث أو الجغرافي الباحث، نذكر من بينها.

1 - دراسة الفكر الجغرافي والمدارس الجغرافية.
2 - دراسة المناهج الجغرافية وذلك لتسليح الطالب بالأدوات الضرورية للبحث.
3 - غياب العمل الميداني الذي يمكن الطالب من الاحتكاك بالبحث ومعاينة مشاكله وترويده على العمل الجغرافي الصرف.
4 - إعداد بحث جغرافي لنيل الاجازة في الجغرافيا
5 - توفير الشروط المادية للأساتذة الباحثين
6 - غياب برامج للبحث العلمي من شأنها أن تنمي خبرة ومعرفة الأساتذة الباحثين.

وبالرغم من كل هذه العناصر المضادة وبالرغم أيضا من أن المهمة المنوطة بالجغرافيين هي تكوين الأطر التعليمية فقد استمر البحث والانتاج الجغرافي خاصة على يد الفرنسيين الذين بقوا بالمغرب يعدون أبحاثهم ورسائلهم الجامعية. وبعض الأساتذة المغاربة الذين كانوا يشكلون أقلية قليلة.

وتميزت فترة الستينات من البحث الجغرافي :

1 - باستمرار نشاط جمعية جغرافية المغرب ويتجلى هذا النشاط في استمرار صدور مجلة جغرافية المغرب بكيفية منتظمة والتي استطاعت أن تحتفظ بمكانتها وأهميتها الى جانب مجلات اخرى مثل :

- تنظيم رحلات دراسية استكشافية لبعض مناطق المغرب.

وتميز الانتاج الجغرافي خلال هذه الفترة - (الستينات وبداية السبعينات) بتنوع المواضيع، فبعد أن كان الاهتمام منصبا على الجانب الطبيعي أصبح الاهتمام متزايدا بالجوانب البشرية مع التركيزعلى الارث الاستعماري. إلا أن هذا الانتاج كان يطغى عليه جانب الحياد Géographie passive، إذ كان عبارة عن تجميع للمعلومات وتصنيفها وتحليلها دون الخروج بنظريات أو إعطاء آراء أو اتخاذ مواقف. فعمل الجغرافيين في هذه المرحلة كان يقتصر على التعريف بالمركب الجغرافي من خلال المجال المغربي.

وإلى جانب هذا الانتاج الأكاديمي (مقالات في مجلة جغرافية المغرب، رسائل جامعية) ساهم

الجغرافيون في عدة دراسات ومشاريع تنموية ضمن مجموعات متعددة الاختصاصات نذكر من بينها دراسة مشروع سبو ـ 1965 ـ التي جاءت مطبوعة بأعمال الجغرافيين. وكان أهم إنجاز في هذا الاطار «أطلس سبو».

وفي هذه المرحلة أيضا ظهرت عدة مؤسسات جامعية اهتمت بتطوير البحث في مجال العلوم الانسانية مثل كلية الحقوق، معهد السوسيولوجيا معهد الحسن الثاني للزراعة والبيطرة الذي يضم من بين شعبه شعبة للعلوم الانسانية. معهد علوم الاحصاء... جل هذه المؤسسات وفرت لها جل إمكانيات البحث والتأطير لتنمية البحث في مختلف مجالات العلوم الانسانية وتكوين أطر الدولة في مختلف القطاعات. وبذلك كونت منافسات حقيقيا للبحث الجغرافي. وهكذا، مثلا، وزارة الفلاحة أصبحت منفذا رئيسيا للأطر المتخرجة من معهد الحسن الثاني للزراعة والبيطرة، واصبحت قرارات الدولة في المجال الزراعي تعتمد بصفة أساسية على الدراسات والأبحاث التي يقوم بها هذا المعهد. وهكذا لم تعد الجغرافيا تنفرد بالبحث في المجال القروي بل حلت محلها الانتاجات العلمية لهذا المعهد سيما وأن الدولة وفرت له جميع الامكانيات المادية كما أن الادارة توفر الشروط وتقدم العون فيما يخص تنظيم التداريب الميدانية، وتحقيق برامج البحث.

فترة ما بعد بداية السبعينات وركود البحث الجغرافي.

لعل أهم ما تميزت به هذه الفترة هو تعريب مادة الجغرافيا في الجامعة سنة 1972، مما أدى الى الاستغناء عن الأساتذة الفرنسيين الشيء الذي ترك فراغا كبيرا وعجزاً في الأطر التعليمية الجامعية، وأدى الى فتور في البحث الجغرافي، هذا العجز دفع بالمسؤولين الى استقطاب عدد من أساتذة الجغرافيا والتاريخ العاملين بالتعليم الثانوي والحاقهم بالتعليم العالي والاستعانة بأساتذة من الشرق العربي، إذ أن المغرب لم يكن يتوفر على الأطر الكافية لسد الفراغ الذي تركه رحيل الفرنسيين. هذا الوضع الجديد أدى الى إثقال كاهل الأساتذة بحصص التدريس، عوض أن يتفرغوا للبحث، أضف الى هذا أن الأساتذة الشرقيين بالرغم من مستواهم الجامعي لم يستطيعوا حمل المشعل الذي رفعه الأساتذة الفرنسيون إذ لم يتأقلموا مع مناخ البحث في المغرب ولم يتركوا أية بصمة إيجابية في جغرافية المغرب وهذا أدى الى الاستغناء عنهم بكيفية سريعة وفتح المجال للأطر المحلية والباحثين المبتدئين.

فالفراغ الذي تركه الفرنسيون، وعدم فعالية الأطر الشرقية والالحاق بالتعليم العالي كان حافزا للعزائم المغربية والجغرافيين المحليين على الاستمرار في البحث، وتسجيل رسائل جامعية سواء في الجامعة المغربية أو بالخارج وذلك بالرغم من ضعف الامكانيات المادية والظروف الجديدة المعاكسة (قلة التأطير، اثقال كاهلهم بحصص التدريس) الشيء الذي كان سببا في تعثر مسار البحث الجغرافي بالمغرب ويتجلى هذا التعثر في :

1 ـ ركود نشاط جمعية جغرافية المغرب نظرا لكون جل منشطي هذه الجمعية كانوا أجانب.

2 ـ تعثر صدور أعداد مجلة جغرافية المغرب بسبب ركود نشاط الجمعية.

3 ـ تعثر الأساتذة في أبحاثهم وعدم تمكنهم من مناقشة رسائلهم في آجال معقولة بسبب عدم تفرغهم للبحث. وكثرة حصص التدريس.

وقد كانت الضحية الأولى لهذا الوضع الجديد هو البحث الجغرافي. ومع ذلك فقد استطاع الأساتذة أن ينجزوا أبحاثهم، وأن يدفعوا بمجموعات من الطلاب في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات الى إتمام دراستهم العليا بالجامعات الفرنسية خاصة. ومنهم من عاد الآن ليتحمل مهمة التأطير بالجامعة المغربية. وهذا يمكن اعتباره تحولا إيجابيا إذ بتزايد عدد الجغرافيين وبتزايد الانتاج الجغرافي سيمكن التعريف بهذا التخصص وبضرورة الاستعانة به في مجالات مختلفة مما سيعطيه نفسا جديدا. وفعلا فقد ظهرت عدة مؤشرات تبشر بانتعاش البحث الجغرافي في المغرب تتجلى في :

1 ـ استئناف ظهور مجلة جغرافية المغرب في شكلها الجديد.

2 ـ ظهور مشاريع مندمجة في إطار اتفاقيات بين جامعات مغربية وجامعات فرنسية مثل مشروع أطلس فاس ومشروع الأطلس المتوسط بين كلية الآداب بفاس وجامعة تولوز ومشروع

أطلس الدار البيضاء بين كلية الآداب بالدار البيضاء وجامعة تور.

3 ـ إشراك الجغرافيين في بعض الأعمال الجماعية والدراسات التي تقوم بها بعض المكاتب الخصوصية مثل SCET. Marocو Maroc Developpement أو بعض الدراسات والأبحاث التي تقوم بها بعض المؤسسات العليا كالمعهد الوطني للتهيئة والتعمير ومعهد الحسن الثاني للزراعة والبيطرة.

خاتمة :

إن انفتاح الجغرافيين من شأنه أن ينعش البحث الجغرافي، لكن بالرغم من المؤشرات السالفة وبالرغم من المؤهلات التي يتسلح بها الجغرافي لكي يساهم مساهمة فعلية في كل الدراسات التي تهم التهيئة وإعداد المجال فإن المساهمة لازالت محدودة نظرا لقلة عدد الجغرافيين، ولكون مهمة الجغرافي بالمغرب لازالت غير واضحة بسبب التقليد الذي أصبح شائعا والمتمثل في أن مهمة الجغرافي هي تكوين أساتذة التعليم الثانوي.

إن تنمية البحث الجغرافي يكمن في مشاركة الجغرافيين في المجموعات المتعددة التخصصات وإنجاز مشاريع مندمجة سواء في إطار التعاون مع جامعات أجنبية أو في إطار التعاون بين جامعات مغربية، والمساهمة في البحث التنموي La recherche developpement الذي من شأنه أن يعرف بالجغرافيا وبأهمية الجغرافيين. وبعبارة أوضح أن تنمية البحث الجغرافي موكول للجغرافيين أنفسهم ومدى قدرتهم على تخطي العقبات.

محمد يازغي مباشر

المراجع :

— Mohamed Nacir : La géographie coloniale : une science appliquée à la colonisation, perception et interprétation du fait colonial chez J.Calevier et G.Hardy.
— J.Calevier : Maroc, collection «L'union française» Berger Levrault, 2ème ed. 1954.
— Joly et collaborateurs : La géographie du Maroc
— J.Martin et collaborateurs «géographie du Maroc» Hatier. Paris 1964
— les publications de la société de géographie du Maroc
  — Bulletin de géographie Marocaine (B.G, Ma)
  — Revue de géographie marocaine (R.G, Ma)
  — Les notes marocaines (N.M)
  — Revue de géographie du Maroc (RGM)

تحولات البوادي المغربية، مقاربة منهجية

جنان لحسن وإديل عمرو
كلية الآداب
- فاس -

في البداية، يجب التأكيد على أن القصد من هذه المداخلة، ليس إعطاء منهجية جاهزة لمقاربة موضوع تحولات البوادي المغربية، بل إن هدفنا هو أساسا إثارة نقاش حول هذه المسألة التي تكتسي في نظرنا أهمية خاصة.

I - التحولات كموضوع :

لقد عرفت البوادي المغربية عدة مقاربات تمثلت خاصة في تيارين أساسيين هما : التحديث وعلاقة المدن بالبوادي.

أما موضع التحولات فيعتبر إشكالية معاصرة تطرح نفسها بحدة نظرا لكونها تتخذ مظاهر وأبعادا متعددة.

إن أهمية هذا الموضوع تأتي من كون تناقضات التطور الرأسمالي في المغرب تنفجر بحدة أكبر في البوادي، وبالتالي فإن النتائج المترتبة عن هذا التطور تطرح عدة مشاكل منها :

1 - تزايد تمركز ملكية الأرض في يد فئة قليلة مع ما يرافق ذلك من ارتفاع في نسبة غير المالكين.

ففيما يخص المستوى الوطني وانطلاقا من الاحصائيات الرسمية، نلاحظ هذه المسألة بوضوح. فحسب البحث المتعدد الاهداف (المقام في 74/73) فإن 34 % من العائلات القروية لا تملك أرضا، كما أن 22 % لا تملك إلا أقل من هكتار واحد.

ومن جهة أخرى، فإن معطيات التصميم الخماسي 77/73 تبرز تناقضات أكبر فيما يتعلق بالأرض، إذ بينما نجد أن 87 % من العائلات القروية التي تتراوح ملكيتها بين 0 و3 هكتارات تسيطر على 35 % من المساحة الزراعية، فإننا نلاحظ بأن 3 % فقط من العائلات القروية لها ملكيات تتعدى 10 هكتارات ولكنها تسيطر على 33 % من المساحة الزراعية.

أما إذا انتقلنا الى المستوى الجهوي أو المحلي، فإننا نصادف متوسطات أعلى وتناقضات أكبر.

فحسب بحوث ميدانية أجريت في مناطق مختلفة من المغرب (1) في 1984 يمكن تقديم النتائج التالية :

المنطقة	غير المالكين	الملاكون الكبار	
	%	%	%للأراضي التي يملكونها
صنهاجة سيدي يوسف(دير صفرو)	41	4،6	39
زاوية افران(دير الأطلس المتوسط الغربي)	36	2	21
الرغيوة منطقة تاونات	38	1،7	18
أولاد عمران (ناحية تيسة)	22	3،5	23
تالوين (كولميمة)	25	منطقة تسود	فيها الملكية القزمية

وهكذا نلاحظ مدي اختلال التوازن الذي يسود البنيات العقارية في مختلف الجهات.

2 ـ إن النتيجة الأساسية المترتبة عن هذه الوضعية، هي ارتفاع تيار الهجرة القروية نحو المدن. فالاحصائيات الرسمية تعطي لفترة 1960 ـ 1977 حوالي 100 ألف شخص يغادرون البوادي سنويا، مع ما ينتج عن هذه الهجرة من عواقب وخيمة سواء على مستوى البادية أو المدينة.

3 ـ لقد حاول سكان البوادي التكيف مع وضعية تمركز ملكية الأرض وذلك باللجوء الى الأنشطة غير الفلاحية، التي بدأت تتزايد وتتنوع كما تظهر ذلك هذه الإحصائيات، فحسب إحصاء 1971 نجد بأن 15 % من السكان النشيطين في البوادي يعملون في أنشطة غير فلاحية. إلا أن الأبحاث الميدانية الحديثة تبرز نسبا أعلى بكثير من المعدل الوطني وتؤكد بالتالي هذا الاتجاه. ففي صنهاجة سيدي يوسف (دير صفرو) تصل هذه النسبة الى 36،5 % ، في الرغيوة حوالي 50 % ، أما في تالوين فتتجاوز 55 % .

4 ـ وأخيرا، وبالموازاة مع هذه التطورات، تظهر تحولات أخرى على مستوى السكن ونمط العيش والعقليات، وكذلك على مستوى البنيات الديموغرافية لسكان البوادي، خاصة فيما يتعلق باتجاه العناصر العاملة في القطاع الفلاحي نحو الشيخوخة، من جراء هجرة الأبناء وانعدام الاستمرارية بين الأجيال كما يظهر ذلك في منطقة تاونات ـ الرغيوة ـ حيث نجد بأن 75،4 % من المزارعين يتعدى عمرهم 45 سنة، بينما 24،6 % فقط هم الذين يقل عمرهم عن هذا الحد. ولا يخفى ما لهذه الوضعية من تأثير على مستقبل النشاط الفلاحي.

إن تعدد هذه المشاكل وتنوعها، زيادة على تداخل مظاهر التحول الناتجة عنها، هي التي تفرض مقاربة جديدة للعالم القروي، تحاول تجاوز سلبيات الطروحات التقليدية.

II ـ المقاربات التقليدية للعالم القروي : من النظرة الجامدة الى سيطرة النظريات العامة

لقد شكل المجال القروي المغربي ميدانا خصبا اجتذب اليه الدارسين من مختلف العلوم الانسانية. فتشكل من جراء ذلك رصيد معرفي ضخم ومتنوع. إلا أنه في اعتقادنا يجب تصنيفه الى مجموعة من المراحل حسب مستويات التحليل السائدة.

1 ـ فخلال المرحلة الأولى من الاستعمار، وإلى حدود الحرب العالمية الثانية نجد بأن أغلب الدراسات كانت تعالج العالم القروي، كعالم تقليدي، منغلق على ذاته، ويتميز ببنيات جامدة لا تقبل التطور. إن هذا النوع من التحليل، كان يأخذ جذوره من النظرية الاستعمارية التي طورها ليوطي والقائلة بضرورة الحفاظ على المغرب التقليدي. ولهذا كان الهم الرئيسي للدارسين آنذاك هو إبراز ما

هو غريب وخاص ومتميز في العالم القروي. ولهذا فإن هذا الاخير يبدو كمتحف يحافظ بأمانة على بنياته وتنظيماته التقليدية.

2 ـ حتى بعد الحرب العالمية الثانية، ورغم ظهور تناقضات صارخة على مستوى العالم القروي، من جراء فقدان الفلاحين للأراضي التي سيطر عليها الاستعمار، وتزايد الهجرة القروية، وانتشار الزراعة العصرية، فإن النظرة الجامدة التي كانت سائدة من قبل فيمايخص البوادي لم تتغير إلا قليلا. فقد بقيت أغلب الدراسات ترى في الجبال مجالا خاصا ومعزولا، يمثل استمرارية البنيات التقليدية.

3 ـ ابتداء من الستينات سوف تظهر في المغرب ـ بموازاة أو كصدى للنقاش الدائر في الغرب حول إشكاليات التخلف، إزالة الاستعمار، التنمية... ـ دراسات تهتم بالعالم القروي، ولكنها متأثرة بالنظريات العامة المفسرة لتطور المجتمع الرأسمالي. إن هذه الدراسات جعلت من البحث عن العوامل العامة المفسرة للتطور همها الأساسي، وذلك من خلال التركيز على الجوانب المادية ـ الاقتصاد أساسا ـ في التفسير. لقد حاولت أن تبرز بأن مختلف مظاهر التطور والتحول التي يعرفها المجال القروي (الهجرة، انتشار استعمال النقود، الاندماج في دائرة السوق وهيكلة الدولة للمجال القروي....) هي مظاهر شاملة وكلية، وتعمل بنفس الميكانزمات في مجموع العالم القروي.

إن النتائج الأساسية المترتبة عن هذه المقاربات هي أساسا إدخال العالم القروي المتميز بالغنى والتنوع، في صيرورة واحدة. فباسم البحث عن نموذج شامل يتم تغييب واقع قد يشمل أحيانا أزيد من نصف المجال المدروس. كماأن طريقة التعميم المتبعة في هذا الدراسات تؤدي الى طمس واقع الاختلاف ليس فقط بين المناطق بل حتى داخل المنطقة الواحدة. ومن هناك يمكن القول بأن فشل عدد من مشاريع التنمية والاعداد راجع الى التعميم وعدم الأخذ بعين الاعتبار الخصوصيات المحلية التي ترتبط بعوامل غير اقتصادية أحيانا.

III ـ من أجل مقاربة جديدة للعالم القروي.

إن تغيير النظرة الى العالم القروي يتطلب استعمال مقياس جديد، يتجاوز التعميم والنماذج النظرية السائدة. فالتحليل المعمق لموضوع التحولات يبرز أن كل مجال جغرافي له مسار خاص، يتحدد تطوره بمجموعة من المتغيرات التي يجب أن تضبط على مستوى مجالي محدود.

إن هذه الطريقة تفرض القيام بدراسات دقيقة لاظهار الاختلافات الملموسة التي نجدها بين مجالات متقاربة جغرافيا، ومتشابهة من حيث الظروف العامة. فقد أكدت الأبحاث أن مجالين متقاربين يعرفان تطورات مختلفة. ففي دير الحاجب، وعلى مسافة لا تتعدى 10 كلم، ورغم تشابه الظروف العامة نمر من نطاق غني وديناميكي في آيت والال، الى نطاق متأزم في عين لحنوش. نفس الملاحظة يمكن إبداؤها فيمايخص سهل كيكو بالأطلس المتوسط : ففي العالية (أيت عرفة ـ تيمحضيت) تسود بنيات تقليدية تعيش على الرعي الواسع، بينما في كيكو الأوسط نجد قطاعا زراعيا تقليديا، يمتاز بدينامية كبيرة مبنية على زراعة البطاطس.

إن فهم هذه الاختلافات يفرض التركيز على الأمثلة الحية والمعاشة، وذلك من خلال دراسة التحول على مستوى الاستغلاليات، وضبط المسار العائلي، وإبراز دور الوسط المحلي والاعراف والتاريخ والارث الثقافي. وهذا كله يؤكد أن البعد الثقافي والاجتماعي مسألة أساسية في فهم العالم القروي.

أما وسائل البحث، فتجدر الاشارة الى أن الاستمارة كتقنية لها أهمية كبرى، لكونها تمكن من ضبط المعطيات والمظاهر الموجودة في المحاط أو على مستوى الاستغلالية، لكنها لا تفسر ولا تمكن وحدها من فهم الميكانزمات الخاصة للتحول. ومن هنا ضرورة النزول الى الميدان لأجل فهم صيرورة التحول على المستوى المحلي، من خلال ضبط أهمية ودور كل عامل، وكيفية تأثيره محليا.

إلا أن هذا التركيز على الخصوصيات المحلية لا يجب أن يفهم على أنه انزواء أو انغلاق على الذات، أو ضرب للنماذج النظرية، بل إن الهدف المتوخى منه هو التأكيد على أن العالم القروي

يتهيكل بأشكال متباينة، وان تعميم الأحكام مسألة غير سليمة.

إن هذه المقاربة الجديدة ترتكز على استعمال مقاييس متباينة تبرز جدلية الخاص/العام، ومن العام الى الخاص، وذلك بشكل متزامن على مستوى التحليل. إنها باختصار درجة أدق من التفكير فيما يخص العالم القروي، وهو الشيء الذي لم تتوصل اليه دراسات الأجانب حول البادية المغربية، ومن هنا فهو مهمة ملقاة حاليا على كاهل الباحثين المغاربة.

لحسن جنان وعمرو إديل

الجهاز الاقتصادي لمدينة فاس العتيقة مقاربة منهجية

باسم مجموعة أطلس فاس، د. علي فجال ومحمد عامر
كلية الآداب
فـاس

استقطبت مدينةفاس العتيقة اهتمام الباحثين منذ بداية القرن العشرين. وكان الباعث على هذا الاهتمام هو التعريف بخصوصية نظامهاالاقتصادي والاجتماعي والمجالي، وحياتها الثقافية. وبعد الاستقلال خاصة، استقبلت أفواجا ضخمة من السكان، ترتب عنها آثار سلبية على ظروف العيش وعلى التراث العمراني. وتبعا لهذه التحولات ركز الخطاب المتعلق بالمدينة العتيقة، انطلاقا من أواخر الستينات على الأزمة العامة التي تعاني منها على جميع المستويات، غير أن تكاثر الأنشطة الانتاجية، والتجارية والخدماتية بكيفية مثيرة، في هذا الجزء من المجال الحضري، يفرض إعادة النظر في الرؤية الأزمورية المسلطة عليه، والاهتمام بجهازه الاقتصادي من خلال منهجية تمكنه من فهم سيره وكيفية تمفصله مع باقي عناصر النظام الحضري.

تحولات المدينة العتيقة :

كانت مدينة فاس العتيقة، حتى بداية هذا القرن، تقوم على أساس نظام اقتصادي مركز على الذات، فلقد كان الاقتصاد الحضري يتميز بوجود ارتباطات وظيفية بين الأنشطة المكونة له، وبين هذه الأنشطة والمجال الخارجي على المستوى المحلي أو الاقليمي أو الوطني، عن طريق التزويد بالمواد الأولية أو توزيع البضائع المصنعة. كما كانت الحياة الاقتصادية داخل المدينة العتيقة تخضع لمجموعة من الضوابط يفرضها النظام الطائفي وتعمل على صيانة التوازن الاقتصادي (تقنين الانخراط في الحرف) والاجتماعي (ضمان مصلحة المنتج والمستهلك) (١).

وفي مطلع هذا القرن ادى تدخل الاستعمار الى التقويض التدريجي للتوازن التقليدي المشار اليه، وفتح الباب أمام سلسلة من التحولات أهمها :

ـ أزمة الجهاز الانتاجي من جراء منافسة البضائع الصناعية وتطور أنماط الاستهلاك.

ـ انفتاح اقتصاد المدينة العتيقة بعد أن رفعت الحواجز التي كان يقيمها النظام الطائفي أمام حرية البادرة الاقتصادية (ضرورة قطع مراحل المهنة من المتعلم الى المعلم، وموافقة المعلم الخ...) وبهذا أصبح اقتصادها يتطور كميا ونوعيا تبعا لمتطلبات سوق الاستهلاك وسوق العمل.

ـ تهميش المدينة، بعد تأسيس مدينة خاصة بالجالية الاوربية تركزت بها السلطة الادارية والأنشطة الاقتصادية العصرية. وهكذا أعيد ترتيبها كوحدة ضمن تنظيم حضري ذي أهداف جديدة، تتحكم فيه أطراف فاعلة أجنبية. هاجرت نخبتها النشيطة نحو مراكز الثقل الاقتصادي على الساحل الاطلسي.

كان من المنتظر أن تؤدي هذه التحولات، تدريجيا الى خنق المدينة العتيقة وعوض أن يحدث ذلك لوحظ تزايد في ثقلها الديموغرافي ووزنها الاقتصادي.

المدن	/ السكان	/ الأنشطة
فاس	45	60
مراكش	63	60
الرباط ـ سلا	17،8	33،6 (2)

وتطرح هذه المفارقة في كل أبعادها، مشكل معرفة حقيقة النظام الحضري للمدينة العتيقة بصفة عامة، ونظامها الاقتصادي على وجه الخصوص.

مقاربات المدينة العتيقة :

هنالك دراسات كثيرة تناولت المدينة العتيقة ووفرت رصيدا هاما من المعطيات المتعلقة بالجوانب التاريخية، والاقتصادية، والاجتماعية والعمرانية ويمكن أن نستخلص من هذه الدراسات مواقف مختلفة من هذا المجال (2).

ـ موقف الانبهار بمقومات النظام الحضري التقليدي على مستويات التنظيم الاقتصادي والاجتماعي وبالتراث المعماري والثقافي ويهدف أصحاب هذا الموقف من خلال دراساتهم الى التعريف بالمدينة العتيقة ورد الاعتبار إليها، عند كثير من الأجانب الذين كانوا يعتبرونها كمتاهة.

ـ الموقف الأزموي : يعتبر أصحاب هذا الموقف أن المدينة العتيقة مجال محكوم عليه بالاندثار، نتيجة لتغير الظروف التقنية والاقتصادية والاجتماعية المحيطة به. وما من شك في أن التركيز على الأزمة رغم ما يقوم عليه من أسس موضوعية، يهدف من جهة الى تبرير أطروحات أو تمرير مشاريع، ومن جهة ثانية يؤدي الى عدم الانتباه الى التحولات الايجابية التي تواكب «الأزمة» والمتمثلة في وجود أنشطة اقتصادية استطاعت أن تقاوم الأزمة وأخرى تكيفت معها، وثالثة طورت بنيتها.

ـ الموقف الثقافي : يتمثل في تقديم المدينة العتيقة بمظهر نظام حضري متميز بالتوازن والانسجام ينم هذا الموقف عن كثير من الحنين الى الماضي المجيد، ويفهم منه على أن النظام الحضري التقليدي هو النظام الأمثل الذي يتعين رد الاعتبار اليه والسير على هديه في تخطيط المدن.

ولا شك أن لهذه المواقف انعكاسات على الطرق التي يقارب بها واقع المدينة العتيقة. فعلى المستوى الاقتصادي تميزت المقاربات بخاصيتين.

مقاربات تجزيئية : فدراسة المدينة العتيقة كانت تتوقف عند مستوى دراسة كل قطاع على حدة دون تتبع سيره وكشف العلاقات الظاهرة أو الخفية التي تربطه بالقطاعات الاخرى، التي بدونها لا يمكن إبراز الأنشطة الممركزة والأنشطة التابعة او المشتقة، كما لا يمكن تحديد المستوى الذي يتعين التدخل فيه لتغيير آليات تطوره وتوجيهها.

مقاربات تعميمية : جل الدراسات التي اهتمت بالنظام الحضري ككل أو الجهاز الاقتصادي خاصة، لم تنطلق من معرفة شمولية لمكونات هذا الجهاز، بل غالبا ما كان يكتفي بعينات تعمم نتائجها على الباقي غير المحصور الذي ليست له بالضرورة نفس بنية العينة.

ولهذا فإنه مع كثرة الدراسات ومع أهمية المعطيات المتراكمة لا يمكن القول بأنه تم التوصل الى فهم عميق لمكونات الجهاز الاقتصادي وسيره وكذا صيرورة تحوله.

نحو فهم أحسن للجهاز الاقتصادي لمدينة فاس العتيقة :

قد يكون من المفيد، منهجيا، محاولة تحديد موقع المدينة العتيقة من نموذج التطور الذي عرفته

الأحياء القديمة في البلدان الصناعية. ففي هذه البلدان تطورت الأحياء القديمة بموازاة مع التحولات التي مر منها النظام الرأسمالي وتم هذا التطور على شكل دورات متتالية، نوجزها فيما يلي :

الدورة الأولى : كانت الأحياء القديمة تلعب دور المركز، حيث كانت تجمع الأنشطة الاقتصادية وسكن مختلف الشرائح الاجتماعية، ويتوزع الكل على شكل حلقات متراكزة (نظرية Burgess) أو قطاعات (نظرية HOYT).

الدورة الثانية : أدى نمو الرأسمالية، وتضخم الأنشطة من جهة الى تزايد الحاجة الى مساحات كبيرة من الأرض، وخلق من جهة أخرى مشاكل عويصة على مستوى تنقل السكان ونقل البضائع فكان أن بدأت الأنشطة تهجر الأحياء القديمة الى الهوامش، وصاحبتها الفئات الاجتماعية الغنية، خصوصا مع ظهور السيارات وسهولة المواصلات، وعلى إثر هذه التحولات دخلت الاحياء القديمة في مرحلة من التدهور فانخفضت قيمتها وأصبحت في متناول الفئات الفقيرة وخصوصا من الأجانب.

الدورة الثالثة، وعودة الفئات الغنية الى الاحياء القديمة :

وقع هذا بسبب المشاكل التي أصبحت الحياة تطرحها في الضواحي، وترجم على شكل حنين الى ظروف الحياة في مدينة ما قبل الثورة الصناعية، غذته وسائل الاعلام وساعدت على تحقيقة سياسة إنقاذ الأحياء القديمة التي تبنتها ودعمتها الدولة، فنشطت حركة الترميم والتجديد، وبرزت الأحياء القديمة كمجالات مواتية لتراكم الرأسمال. واستبدلت الفئات الاجتماعية الفقيرة بفئات غنية، وحدث تطور نوعي في الأنشطة، بحيث أصبحت الأحياء القديمة تأوي الحرف والتجارة والخدمات الراقية.

ليس المقصود بهذا العرض، وجود تطابق تام بين نموذج تطور الأحياء القديمة في مدن الدول الصناعية «نموذج» تطور مدينة فاس العتيقة، بل الدعوة الى التفكير في اعتماد مفهوم الدورات في مقاربة واقع هذه الأخيرة وربطه باستراتيجية الرأسمال من مجالها.

ومن هذا المنطلق، يبرز تاريخ تطور المدينة العتيقة مرحلتين :

مرحلة ما قبل الاستعمار : كانت المدينة العتيقة تشكل الى حدود بداية القرن نظاما حضريا متكاملا، يقوم على أساس اقتصادي متنوع، منه ما هو موجه لسكان المدينة، وجزء آخر له امتدادات على المستوى الاقليمي والوطني والدولي، في بعض الأحيان تميزت هذه المرحلة بتمركز «الرأسمال» في المدينة العتيقة وباستقراره القطاعي. ولا يحيد عن هذا الوضع إلا في حالتين :

وجود رساميل تستغل في التجارة الخارجية، واستعمال الفائض المالي في اقتناء أراضي فلاحية.

مرحلة تهميش المدينة : جاء هذا التهميش نتيجة تدخل نمط الانتاج الرأسمالي وما صاحبه من أزمة مزمنة في الجهاز الانتاجي بالمدينة العتيقة من جهة ونقل سلطة التقرير والأنشطة العصرية الى المدينة الأوربية أو مدن الساحل الأطلسي.

عرفت هذه المرحلة مجموعة من التحولات تمثلت في تكيف الجهاز الانتاجي مع منافسة البضائع الصناعية عن طريق النقص من الجودة أو عصرنة جزئية أو كلية لمراحل الأنتاج، ولوحظ أن كل المؤسسات التي استطاعت أن تحقق تراكما ماليا وتنتقل الى مستوى الصناعات الصغرى والمتوسطة غادرت المدينة العتيقة لتستقر في الأحياء الصناعية. لكن سرعان ما تحل محلها أعداد أخرى من المؤسسات تبحث في المدينة العتيقة عن المحلات ذات التكاليف الكرائية المحدودة واليد العاملة الزهيدة الأجرة والتكاليف الضرائبية المنخفضة ونفس الشيء يمكنه أن يقال عن تضخم أنواع التجارة والخدمات القارة منها وشبه القارة والمتنقلة. كما يتعين ربط هذه الظواهر بمشاكل التشغيل التي تعاني منها المدينة عامة والمدينة العتيقة خاصة.

هذه المرحلة المتميزة بنفور الرأسمال المتوسط والكبير من المدينة العتيقة، وإقبال الرأسمال الصغير عليها، لازالت مستمرة الى الآن، غير أن هنالك تحولات بدأت بوادرها تبرز محددة معالم التطورات الممكنة مستقبلا.

ـ الانخفاض المستمر للوزن الديموغرافي للمدينة العتيقة، خلافا لما يعتقد 70،6 % من سكان

المجموعة الحضرية سنة 1960، 57 % سنة 1971 و38 % سنة 1982.

ـ هجرة بعض الأنشطة خارج أسوار المدينة، وخصوصا الى حي «الجنانات» الذي أصبح يشكل امتدادا لها.

ـ تراجع الأنشطة الانتاجية، مقابل تضخم التجارة والخدمات. ويمكن لهذه الظاهرة أن تتفاقم إذا ما أحدثت تغييرات في النسيج الحضري.

وعليه فمن شأن تنفيذ مشروع إنقاذ مدينة فاس وفك عزلة الأحياء عن طريق شق محاور جديدة للنقل العصري، أن يؤدي الى استقطاب الرأسمال المتوسط والكبير، وإحداث تغييرات اقتصادية واجتماعية وعمرانية في هذا الجزء من المجال الحضري. ومن هنا يستخلص الطابع المؤقت والهش لمكونات المدينة العتيقة وجهازها الاقتصادي على وجه الخصوص.

أطلس مدينة فاس العتيقة :

لقد كانت الدراسات التي أنجزت في إطار أطلس مدينة فاس العتيقة مناسبة للاسهام في تطوير فهم الأساس الاقتصادي الذي تقوم عليه هذه الأخيرة واستهدفت هذه الدراسة فهم المفارقة المتمثلة في الحديث عن أزمة المدينة في الوقت الذي تتنوع فيه أنشطتها الاقتصادية وكذا تحليل جهازها الاقتصادي للوصول الى تحديد عناصر القوة ومواطن الضعف فيه بالاضافة الى طبيعة التوازن الذي يقوم عليه.

ولمقاربة هذا الواقع المعقد، لم يتم الانطلاق من منظور أزموي يحدد النتائج مسبقا، بل من أساس منهجي يعتبر أن المدينة العتيقة تشكل نظاما أي مركبا من عناصر تربطها علاقات وتتفاعل فيما بينها فينجم عن ذلك توازن معين يتطور باستمرار. وحيث أن هذا النظام فرعي. فإنه لا يمكن فهمه إلا إذا وضع في إطار نظام مجالي أوسع، يسمح بمعرفة صدى تأثره بالتحولات ذات الانعكاسات الاقتصادية التي تحدث على صعيد المجموعة الحضرية، أو على المستوى الوطني أو الدولي. تمت الدراسة في مرحلتين :

المرحلة الاولى : تمثلت في الاحصاء الشامل لكل المنشآت الاقتصادية العاملة داخل المدينة العتيقة. ولقد مكنت هذه العملية من التوفر على مجموعة من المعطيات بالنسبة لكل منشأة. وتخص وظيفة ونشاط المنشأة، خصائص المحلات المادية منها والقانونية، اليد العاملة وعلاقات الانتاج، مصادر الطاقة، التمون والتسويق.

استعملت هذه المعطيات لتقييم الأساس الاقتصادي الذي تقوم عليه المدينة العتيقة من خلال عدد كل من المنشآت الانتاجية والتجارية والخدماتية كما تم تحديد دور مختلف القطاعات على مستوى التشغيل إضافة الى التمييز داخل كل قطاع بين أنماط مختلفة من المنشآت اعتمادا على معايير اقتصادية وتقنية واجتماعية.

المرحلة الثانية :

بناء على تمثيلية كل نمط تم اختيار عناصر العينة التي أجري عليها بحث مفصل انكب على دراسة سير القطاع، علاقات الانتاج والانعكاسات المجالية.

انطلق هذا المستوى الثاني عن البحث من تصنيف عمودي للأنشطة قام على دمج كل المنشآت المرتبطة فيما بينها بعلاقات وظيفية، وتوزيعها داخل كل قطاع حسب موقعها من الدورة الاقتصادية. سمح بهذا تتبع مراحل الدورة الاقتصادية التي تقطعها البضائع ابتداء من العالية الى مرحلة الاستهلاك النهائي (أنظر الشكل) ويفهم ضمنيا من هذه الطريقة أن كل قطاع يشكل داخل الجهاز الاقتصادي نظاما فرعيا وبالاضافة الى هذا الارتباط العمودي هنالك ارتباط أفقي يتم في واحدة أو أكثر من مراحل الدورة الاقتصادية وعبر قنوات منها ما هو ظاهر، (تبادل البضائع، اليد العاملة الخ...) ومنها ما هو خفي (الارتباط المالي).

لقد ساعدت هذه الدراسة على فهم كثير من الجوانب التي ظلت غير معروفة عن الأوضاع الاقتصادية في المدينة العتيقة.

فيما يخص سير النظام الاقتصادي : مكنت دراسة تمفصل مختلف وحدات الانتاج والتجارة

والخدمات، على التمييز بين وحدات ذات علاقات وظيفية محلية وأخرى ذات ارتباطات خارجية.

فالأولى تساعد على مقاربة درجة استقلالية اقتصاد المدينة العتيقة وتسمح بالقول بوجود نظام اقتصادي بها، مكون من عدد كبير من الوحدات الانتاجية والتجارية والخدماتية، أفرزتها خاصة قطاعات الجلد والنسيج والمعدن.

أما الثانية فتمكن من إبراز تبعية المدينة من جهة وميادين وأهمية المنافسة المفروضة على الاقتصاد المحلي من جهة أخرى.

ويتميز النظام الاقتصادي في المدينة العتيقة، باستمرار كثير من خصائص التنظيم التقليدي، فعلاقات الانتاج لم تتغير كثيرا إذ برغم انقراض نظام الطوائف، فإن التراتبية التقليدية لازالت قائمة في مختلف الحرف الموروثة، تحكم علاقات الانتاج بين المتعلم والصانع والمعلم ونفس الشيء، ينطبق على طرق التمون والتسويق، إذ تتم العمليات بالنسبة لبعض الحرف في أسواق متخصصة تنعقد في أوقات وأماكن معينة حيث تقتني المواد الأولية وتباع البضائع المصنعة عن طريق «الدلالة».

أما فيما يخص طبيعة التوازن الذي يقوم عليه الجهاز الانتاجي خاصة، فإن الأوضاع تختلف من قطاع الى آخر ففي قطاع الجلد والمعدن تتميز جل الحرف المكونة لهما بتوازن هش نتيجة ارتفاع تكاليف الانتاج (أثمان المواد الأولية) واستحالة عكس هذا الارتفاع على الأثمنة دون أن يؤدي ذلك الى تقليص السوق وكساد الحرف، ويعمل جل الحرفيين على تجاوز هذا المشكل بالتقليل من الجودة والاكتفاء بأرباح زهيدة مع تحميل اليد العاملة نصيبا من انخفاض المداخيل في هذين القطاعين (تخفيض الأجور، إطالة مدة التعلم بالنسبة للمتعلمين).

وبالعكس فإن أغلبية الحرف في قطاعات النسيج والخشب ومواد البناء التقليدية توجد في وضعية توازن أقل اختلالا نظرا لعدم تقلص سوقها إما بسبب تكيفها مع تغير العادات الاستهلاكية أو احتفاظ السكان بأنماط استهلاكية تقليدية في ميادين اللباس والسكن والبناء.

وفي نفس الوقت فإن المصاعب التي يعاني منها الجهاز الانتاجي كانت السبب في حدوث تحولات في القطاعات الرئيسية (الجلد، النسيج،المعدن، مواد البناء). ويتعين هنا التأكيد على التحولات البنيوية التي تمس حلقة الانتاج خاصة، فمنذ الحرب العالمية الثانية، أخذت تتكون وحدات شبه صناعية (مكننة بعض مراحل الانتاج مع الاحتفاظ، في أغلب الأحيان بطرق التسيير وعلاقات الانتاج التقليدية) لم يمول هذا التحول، إلا نادراً، من التراكم المالي في الحرف التقليدية، بل في الغالب يتعلق الأمر بثلاث حالات :

- وحدات يقيمها أشخاص من خارج مجال المدينة العتيقة.
- وحدات يمولها الرأسمال التجاري كليا أو جزئيا ويشرف عليها الحرفيون.
- وحدات تعاونية يقيمها المعلمون والصناع.

- وتوجد هذه الوحدات في وضعية انتقالية بين الأنشطة التقليدية والصناعة العصرية. كثير من هذه الوحدات التي أنشئت قبل الاستقلال، واستطاعت أن تنتقل الى مستوى الصناعة العصرية، لكن الوحدات الحديثة الظهور توجد في وضعية غير مريحة بسبب منافسة الصناعة العصرية والحرف التقليدية لها، وعليه فمن الصعب عليها الانتقال الى البنية الصناعية دون أن تستفيد من حقن مالي هام او إجراءات استثنائية.

وأخيرا يمكن تفسير المفارقة المتمثلة في الحديث عن أزمة المدينة العتيقة في نفس الوقت الذي تتكاثر فيه وحدات الانتاج والتجارة والخدمات بالحاجيات المتزايدة الى التشغيل المترتبة عن النمو الديموغرافي والتي تعجز بنيات ودينامية القطاع العصري على تلبيتها في حين يتميز الجهاز الاقتصادي للمدينة العتيقة بليونة قوية فيما يخص خلق فرص الشغل وتساعد على هذا كون هذا الجزء من المجال الحضري يوفر ظروفا مثلى للمنشآت الاقتصادية كسهولة الحصول على محلات بأثمان مناسبة، ارتفاع عرض اليد العاملة وانخفاض التكاليف الضرائبية بل في بعض الأحيان توفر إمكانية الافلات من أدائها.

LA FILIERE CUIR DANS LA MEDINA DE FES

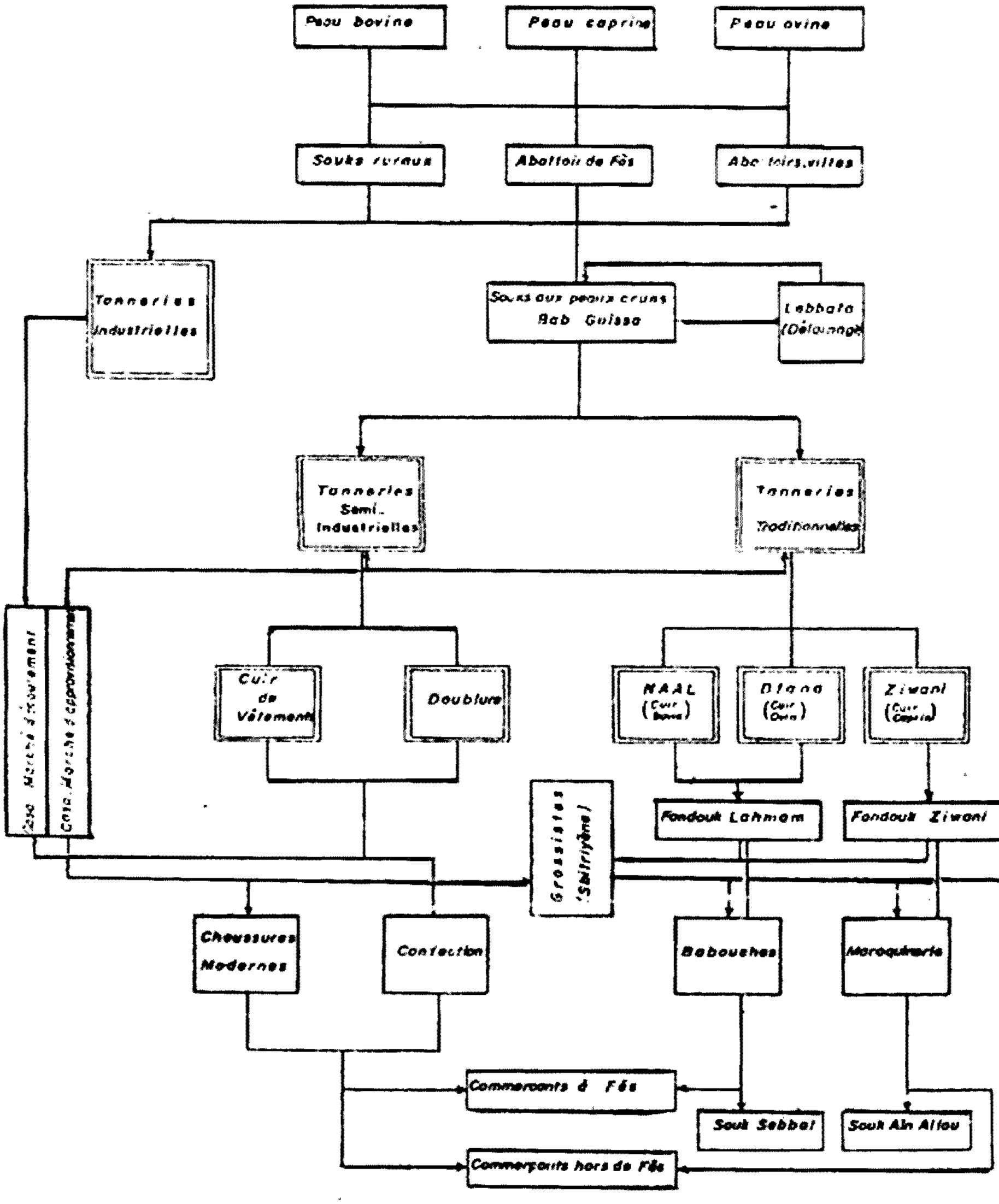

Atlas médina de Fès.

المراجع

(1) روجي لوطورنو، فاس قبل الحماية، ترجمة محمد حجي ومحمد الاخضر، دار الغرب الاسلامي - بيروت - لبنان.

(2) M. Belfkih et A. Fadloullah -1982- Réorganisation spatiale et reclassement fonctionnel des Médecins de Rabat. Salé. ERA 706 Tours.

(3) نظرا لغزارة الدراسات حول فاس في هذه المرحلة نكتفي بذكر البعض منها :

(1) Bel. 1. - 1918 - Les industries de la Céramique à Fès. Alger Paris. Salé. ERA 706 Tours.

(2) Berque. J. - 1939 - Deux ans d'action artisanale à fès - Questions Nord Africaines.

(3) Bousquet G. - 1940 - La criée publique à Fès, étude concrète d'un marchè. Revue de l'Ecole Polytechnique 13245.

(4) Granges. C - 1950 - Essai de modernisation des industries artisanales de la tannerie à Fès. BESM. N : 46.

(5) Guyot. R. - Letourneau, R. et Paye, A La corporation des tanneurs et l'industrie de la tannerie à Fès. Hespesis vol. XXI

(6) Cte Maurice de Périgny - 1916 - « La ville de Fès, son commerce et son industrie» Imprimerie municipale. Fès.

(7) Burgess (E.W) 1929. Urban Areas in Smith (T.V) and White (L.D) Univ. Press of chicago.

(8) Hoyt (h) 1939 - The structure and growth of résidential Neighborhood in American Cities. Washington.

(9) Schéma directeur d'Aménagement et d'Urbanisme de la ville de Fès M.H.A.T. en collaboration avec le PNUD et l'UNESCO. Paris

(4) هناك ما يزيد على ثلاثين مشروعا تشمل الميادين المعمارية والادارية، والثقافية والاقتصادية والاجتماعية.

(5) أطلس مدينة فاس : ينجز بتعاون بين شعبة الجغرافيا كلية الآداب بفاس، ومعهد الجغرافيا بجامعة تولوز ميراي - فرنسا ويدخل هذا المشروع في إطار العمل المندمج رقم 35 - صدرت منه إلى حدود سنة 1987 أربعة خرائط.

تقرير عام :

نظمت وحدة الجغرافيا بكلية الآداب والعلوم الانسانية بمكناس وبمشاركة الجمعية الوطنية للجغرافيين المغاربة ـ فرع فاس ـ ندوة تحت عنوان «إشكالية ومناهج البحث في الجغرافيا» واستمرت أشغال هذه الندوة من 9 و30 صباحا الى 1 و15 بعد الزوال ومن 3 و30 د الى الساعة 8 و15 د مساء. وتناولت العروض والمناقشة 5 محاور رئيسية.

1 ـ إشكالية الوسط الطبيعي، وهل هناك وسط طبيعي أم لا ؟ وانتهى النقاش الى أن الوسط الطبيعي وسط «منفتح» يأخذ ويعطي، يؤثر ويتأثر وبذلك فهو يتطور باستمرار حسب مكانزمات تتحدد في المجال. وعند دراسة كل وسط طبيعي لابد من إدخال العنصر البشري كمدبر للمجال.

2 ـ تطور الفكر الجغرافي والتحولات المتعلقة بالجغرافيا كعلم، فطرح مشكل المدارس الجغرافية والتطور التاريخي لأهم المدارس والمناهج الجغرافية هذا التطور ينطبق على تطور الفكر الجغرافي، ففي كل مرحلة يفرز إشكالية معينة وأبعادا خاصا للبحث الجغرافي : من الحتمية الجغرافية الى مفهوم الاقتصاد الكلي الى الازدواجية الى العلاقة بين البادية والمدينة الى التحولات... واعتبر المناقشون أن هذه الاشكالية هي إشكالية معاصرة يبرزها انفتاح المجال على عالم أوسع وما يعرفه بسبب ذلك الانفتاح من تكيف مع الظروف الجديدة أو تبدل أو اختلال (وهذا يؤدي الى الهجرة). فمسؤولية دراسة التحولات مسؤولية أصبحت على عاتق الجغرافيين المغاربة أنفسهم باعتبار أن ضبط التحولات أو مكانزمات التحولات لم يعد الجغرافي الأجنبي قادرا على تتبعها إذ أصبحوا متجاوزين رغم ما يبذلونه من جهود وبوسائل مختلفة : الاشراف على الأبحاث... فالجغرافي المغربي هو المسؤول الأول على هذه التحولات وهذا يزيد من أهمية هذا المحور.

3 ـ إشكالية المفارقة بين الدراسة العامة والخاصة أي مستوى المجال الذي ينبغي أن تتناوله الدراسة الجغرافية، وهذا المحور يرتبط بالنظريات العامة المتداولة في الحقل الجغرافي، والاختيار بين موقفين.

ـ موقف التعميم ويعني التطرق لمجالات واسعة في بعض الأحيان تمتد على مستوى المغرب بكامله وهذا ما كان سائدا في الفترة ما قبل السبعينات وحتى ما قبل الثمانينات.

ـ موقف التخصص : أغلب التدخلات أكدت على أهمية الدراسات المتخصصة التي تتناول المجالات الضيقة وتدرس الوحدات الدقيقة وهذا من شأنه أن يعمق التحليل على أساس أن تجميع عدد من المنوغرافيات والدراسات المحدودة والدقيقة سيمكننا، من التعميم والتنظير في مراحل لاحقة.

4 ـ مشكل المفاهيم ـ هذا المشكل أثار جدلا كبيرا بين المتدخلين الذين أكدوا على أن له علاقة بمشكل التعريب لأن مادة الجغرافيا تم تعريبها بكيفية مستعجلة، وهذا المشكل هو أيضا منهجي لأن المفهوم والمنهج لايمكن أن يفترقا، كما أن هذا المشكل يهم أيضا باقي العلوم الانسانية الأخرى. والمناقشات لم تخرج بموقف موحد من هذه المفاهيم، على أساس أنها لازالت مطروحة للنقاش ويمكن أن تكون موضوع ندوة خاصة.

5 ـ أساليب العمل : أكدت كل المداخلات على ضرورة نبذ العمل الفردي وأهمية العمل الجماعي في مجال العمل الجغرافي كما أكد المشاركون على تفادي المناهج الجاهزة التي قد لاتتلاءم ومعطياتنا. كما ركزوا على أهمية التكامل بين مختلف التخصصات وتوحيد المناهج مع مراعاة تقنيات البحث الخاصة بكل فرع من فروع الجغرافيا، كما ألح الجميع على أهمية العمل المشترك (Interdisciplinarité) بين فروع الجغرافيا ثم ما بين الجغرافيين والعلوم الأخرى.

محمد اليازغي مباشر

دراســـات ومقـــالات

المضاربة : المشاركة بين رأس المال والعمل

علال الخياري
كلية الشريعة
فاس

المضاربة : عقد اتفاق بين صاحب رأس المال والمضارب على تمويل عملية استثمارية أو إنتاجية، ويكون الربح مشتركا بينهما بنسبة معلومة.

أوردت تعريف المضاربة منذ البداية، وقبل استعرَاض تعاريفها من خلال المؤلفات الفقهية، لابيِّنَ مدى أهمية الدور الذي من الممكن أن تمارسه المضاربة في تمويل المشاريع الاستثمارية ذات المدى القصير في المجال التجاري الصرف، أو تمويل المشاريع الانتاجية ذات المدى الطويل أو المتوسط في المجال الصناعي والزراعي.

وقد أهَّلهَا للقيام بهذه المهمة التنموية ما تتمتع به صيغتها الشرعية وأحكامها التنظيمية من مرونة وشمول، الأمر الذي جعلها تحتفظ بفعاليتها سواء على مستوى معاملة الأفراد بعضهم مع بعض، أو على مستوى النشاط المصرفي للبنوك الاسلامية المحلية والدولية التي هي بمثابة التطبيق العملي للاقتصاد الاسلامي في الوقت الحاضر.

أولا : المضاربة المشروعة :

تعريفها :

أ ـ في اللغة :

المضاربة والمقارضة أسماء لمسمى واحد، (1) ففي لغة أهل العراق تسمى مضاربة من الضرب وهو القطع، لأن كلا من المتعاقدين يضرب في الربح بنصيب، وأما من الضرب في الأرض وهو السفر، ويقال ضرب في الأرض، الأول للتجارة والثاني للحج والغزو. (2).

وفي لغة الحجازين تسمى قراضا ومقارضة، قال ابن رشد : القراض مأخوذ من القرض وهو ما يفعله الرجل يجازى عليه من خير أو شر، فلما كان صاحب المال والعامل فيه متفقين جميعا يقصد كل منهما الى منفعة صاحبه اشتَقَّ له من معناه اسما وهو القرض والمقارضة، (3) وقال غيره المقارضة المساواة، يقال : تقارض الشاعران، إذا تساويا في الإنشاد ، وكذلك المتعاقدان يتساويان في الانتفاع بالربح. (4).

ب ـ في الاصطلاح : «المضاربة نوع شركة على أن رأس المال من واحد والسعي والعمل من اخر». (5).

وعرفها نجم الدين النسفي بقوله : «المضاربة عقد دفع النقد الى من يعمل فيه على أن ربحه بينهما على ما شرطا. (6).

وفي المختصر «هي توكيل على تجر في نقد مضروب».
وابن عرفة قال : «هي تمكين مال لمن يتجر به من جزء من ربحه لا بلفظ الاجارة». (7)
والملاحظ أن التعريفين الأخيرين أضافا الى تصور الماهية شروطا تتعلق بالصيغة أو برأس المال، مع حصر عملية المضاربة في الميدان التجاري، دون بقية الميادين الاخرى من صناعة وفلاحة، ويرجع السبب الى ما أملته الظروف الاقتصادية، حيث كانت التجارة هي الصيغة الغالبة على النشاط الاقتصادي إبان تفريع الأحكام. إذ أن المجال التجاري كان يغرى رؤوس الأموال أكثر من غيره، نظرا لاتساع أرجاء العالم الاسلامي وتزايد الطلب على السلع والمنتجات من سوق الى سوق.
ومن الممكن تعميم اسم التجارة على ما يشمل الصناعة والفلاحة، والتعبير الاصطلاحي لاياباه، سيما وأن الفقهاء صرحوا بإمكانية تحويل رأس مال المضاربة الى رأس مال صناعي أو فلاحي أو تجاري، على ما سنبين بعد حين بمشيئة الله تعالى
وتنقسم المضاربة الى قسمين :
ـ مضاربة مقيدة وهي التي تتقيد بزمان أو مكان أو نوع تجارة أو بتعامل مخصوص في البيع والشراء.
ـ مضاربة مطلقة وهي التي لا تتقيد بواحد من تلك القيود مثل : اتجر في أية سلعة، وفي أي زمان ومكان شئت. (8).

ج ـ العناصر الأساسية المكونة لعملية المضاربة :

يتطلب إجراء أية عملية استثمارية عن طريق مشاركة المال والعمل أن تتوفر ثلاثة عناصر، تبنى على أساسها تلك العملية، وهذه العناصر هي ما نطلق عليها في الاصطلاح الفقهي اسم الأركان، وهي :
1) رأس المال النقدي
2) العمل
3) الربح
ولكل واحد من هذه العناصر شروط تخصه نفصلها فيما يلي :

العنصر الاول : رأس المال النقدي

يشترط في رأس المال النقدي أربعة شروط :
1) ـ أن يكون في شكل نقود يتعامل بها أهل البلد، واختلف العلماء في رأس مال المضاربة إذا كان بضائع وسلعا، هل يجوز أم لا ؟ الجواز لابن أبي ليلى، والمنع للجمهور وحجتهم أن رأس المال البضاعي يلحقه الغرر، لأن المضارب يتسلم البضاعة، وهي تساوي قيمة مجهولة ويردها وهي تساوي قيمة أخرى حسب تقلب أسعار الأسواق، وهكذا يكون الجهل شاملا لرأس المال والربح معا (9)

وأما إن قارضه على ما به تباع البضاعة، ففي هذه الحالة ثلاثة صور :
الصورة الاولى : أن يقول له أقارضك على الثمن الذي تبيع به هذه البضاعة، وهذه الصورة جوزها أبو حنيفة، ومنعها مالك والشافعي، وَحُجَّتُهُمَا أن المضاربة ستكون على شيئين : ماتباع به البضاعة، وبيع البضاعة نفسها، فكأنه مضاربة ومنفعة، بالاضافة الى أن مابه تباع البضاعة مجهول، فكأنه قارضه على رأس مال مجهول.
الصورة الثانية : أن يسلمه البضاعة بالثمن الذي اشتراها به، ويرى ابن رشد أن الصورة أقرب الوجوه الى الصحة، ولعل هذا الوجه هو الذي جوزه ابن ابي ليلى، بل هو الظاهر من قول الجمهور فإنهم حكوا عنه (10) أنه يجوز أن يعطي الرجل ثوبا يبيعه، فما كان فيه من ربح فهوبينهما، (11) وهو محتوى الصورة الثالثة الآتية :
الصورة الثالثة : أن يدفع له بضاعة، سواء أجره على بيعها، أو جعل الربح بينهما بعد البيع، وما نض من الثمن يكون هو رأس المال، وهذه الصورة جوزها الجمهور وقاس عليها ابن رشد جواز الصورة الثانية، وعلى ما أرى فهذا قياس مع وجود الفارق، إذ تسليم البضاعة الى المضارب بالقيمة التي

اشتريت بها يعتبر شروعا في عملية المضاربة، مع ثبوت ضمان رأس المال على المضارب بخلاف تسليم البضاعة الى المضارب بشرط بيعها مؤاجرة أو مشاركة في الربح فإن عملية المضاربة لم يشرع فيها بعد، إذ لا يقع الشروع فيها إلا بعد نضوض الثمن : ولا ضمان على المضارب قبل هذا الشروع، لذلك أميل الى منع الصورة الأولى والثانية وجواز الصورة الثالثة فقط.

2 ـ أن يقع تسليم رأس المال الى المضارب، بحيث لايبقى لرب المال أي تصرف أو يد عليه، ويحترز بهذا الشرط عن عدة مواصفات كمراجعة المضارب أو جعل أمين عليه، كما يحترز به عن انعقاد المضاربة على دين في ذمة المضارب، ما لم يقبضه منه ويسلمه اليه، لأن المضارب يتهم في موقفه بأنه من باب اخرني وأزيدك، وبهذا عَلَّل ابن القاسم كلام الامام مالك في المدونة (12) «... وإن كان لك عند رجل دين، فقلت له : اعمل به قراضا لم يجز، وكذلك لو أحضره فقال له : خذه قراضا لم يجز إلا أن يقبضه (المقارض) منه ثم يعيده اليه».

وأما العلة عند الشافعي وأبي حنيفة : فإن ما في الذمة لايتحول ويعود أمانة، (13) ومثل الدين الوديعة فلا يجوز أن يقارضه على وديعة عنده، فإن وقع ونزل كان المضارب ضامنا، وإن حصل ربح فله وحده، وليس لصاحب الوديعة أن يطالب بشيء من الربح (14). ومثل هذا العمل تمارسه المصارف في ودائع زبنائها الذين يودعونها بقصد الحفظ، لابقصد الحصول على الفائدة.

3 ـ أن يكون رأس المال معلوما معينا، فلو دفع اليه صرة على أنه يقارضه على ما فيها من نقود لم يجز، لئلا يقعا في المنازعة، (15) وعند الحنفية لايشترط التعيين بل تكفي الاشارة في الاعلام برأس المال كما إذا دفع الى رجل دراهم مضاربة وهو لايعرف قدرها فإنه يجوز القول في قدرها وصفتها للمضارب مع يمينه والبينة للمالك (16).

ومدلول هذا الشرط الثالث يبينه مدلول الشرطين المتقدمين، حيث إنهما يتضمنان بعض الحالات يكون رأس المال فيها مجهولا كما إذا قارضه على ثمن بضاعة يبيعها أو دين يقتضيه من آخر.

4 ـ أن يكون ضمان رأس المال على مالكه لا على المضارب، قال ابن رشد : «إذا شرط رب المال الضمان على المضارب فقال مالك لايجوز (القراض) وهو فاسد، وبه قال الشافعي وقال أبو حنيفة وأصحابه (المضاربة) جائزة والشرط باطل» (17).

وعمدة مالك أن اشتراط الضمان زيادة غرر في القراض ففسد، وأما أبو حنيفة فشبهه بالشرط الفاسد في البيع، وعلى رأيه أن البيع جائز والشرط باطل. (18).

العنصر الثاني : العمل

وهو ممارسة عملية استثمار رأس مال المضاربة في فرع من فروع الاقتصاد، ويقوم به المضارب وحده، فإن اشترطه على رب المال فسدت المضاربة، لأن اشتراكهما في العمل يفضي الى اشتراكهما في التصرف في رأس المال، فلا يتحقق المقصود، لأن يد المالك تبقى ثابتة على المال (19).

والعمل ينقسم الى قسمين :

ـ عمل مقيد

ـ عمل مطلق

وعلى أساس تقسيم العمل يبنى تقسيم المضاربة أيضا الى قسمين : مقيدة وغير مقيدة.

العمل المقيد :

العمل المقيد إما أن يكون فيه تحجير على المضارب مثل أن يعين له شخصا لايشترى إلا منه، أو زمانا ينتهي اليه كالشهر (20) أو محلا لايشتغل إلا فيه، فإن وقع فسدت المضاربة وفيها أجرة المثل. وإما أن يكون فيه تضييق عليه مثل أن يقارضه على أن لايشتري الأسلعة يسميها له، فإن كانت موجودة في الشتاء والصيف فيجوز، وإن كان وجودها في السوق متعذرا لم يجز وفسدت المضاربة (21).

والفرق بين التحجير والتضييق أن التحجير لامنفذ له، بخلاف التضييق كما أوضحت، ومثل اشتراط التحجير زيادة العمل مثل أن يدفع اليه مالا مضاربة ويشترط عليه أن يشتري جلودا فيعملها بيده خفافا أو نعالا ثم يبيعها قال مالك : لاخير فيه، فإن عمل برأيه فهو أجير، وما كان في المال من ربح أو وضيعة فلصاحب المال. (22).

العمل المطلق :

هذا هو الأصل في المضاربة، وهو ان يكون المضارب حر التصرف، لا يتقيد بزمان ولا مكان ولا نوع تجارية ولا بشخص معين، فيبيع نقدا أو نسيئة، ويشتري ما بدا له من سائر التجارات، لأن المقصود هو الاسترباح، فيوكل ويضع ويودع ويسافر، وعن الامام أبي حنيفة، إنه إن دفع اليه في بلد المضارب ليس له أن يسافر لأنه تعريض على الهلاك من غير ضرورة، بخلاف ما لو دفع اليه في غير بلده له أن يسافر الى بلده، إذ الانسان لايستديم الغربة (23).

العنصر الثالث : الربح

إن اشتراك رأس المال والعمل بقصد إنجاز مشروع استثماري، لا تكون الغاية منه سوى حصول المتقارضين على نصيب من الربح بعد انتهاء عملية المضاربة، غير أن هذا الربح غير مضمون لأن عملية الاستثمار قد تنجح أو تفشل، وقد تضيع جهود المضارب سدى، وفي الغالب يكون سبب النجاح والفشل راجعا الى اجتهاد المضارب وحسن تقديره، ومن ثم فإن صاحب المال لا يتحمل أية مسؤولة إزاءه فيما إذا ضاعت جهوده سدى ولم يحقق عمله أي ربح، وبالمقابل فإن المضارب لايتحمل أية مسؤولية إزاء صاحب المال فيما إذا فشل المشروع، كما لايفرض عليه أداء نسبة مئوية لرأس المال يدفعها لصاحبه بعض إنْضَاءِ عقد المضاربة، ولو لم يشغل رأس المال.

ولا يعنينا هنا أن نتكلم على ضمان الربح أو رأس المال فهذا شيء آخر، وإنما يعنينا أن نميز بين الربح المضمون أو الفائدة التي يدفعها المنظم لصاحب رأس المال في النظام الرأسمالي، وبين الربح المنتظر الذي هو المحرك الأساسي لصاحب المال والمضارب معا في الاقدام على عقد المضاربة على أساس اقتسام الربح المنتظر بينهما بنسبة معلومة منذ البداية، ولكن لا يتم هذا الاقتسام الأبعد انتهاء عملية المضاربة التي يجب أن لايحدد انتهاؤها بزمن معين كالشهر ونحوه.

ولذلك اشترط الفقهاء في الربح ثلاثة شروط :

الأول : معرفة نصيب كل واحد منهما من الربح كالنصف والثلث والثلثين وفي المدونة قال مالك : «من دفع الى رجل مالا قراضا ولم يسم ماله من الربح وتصادقا على ذلك فله قراض المثل، إن عمل، وكذلك إن قال له : انت شرك في المال ولم يسم كان على قراض مثله إن عمل» (24).

ومحل هذا إذا لم تكن هناك عادة متعارف عليها بين المتقارضين ويجري العمل بها، فإن وجدت، فالربح على ما اعتادوه، لأن العادة تخصص وتبنى عليها الأحكام (25).

فلو دخلا على أن الربح كله للعامل كان قرضا لاقراضا. غير أن مفهوم هذا الشرط لايكفي وحده في جميع الحالات، فهنالك حالة يكون معها هذا الشرط غير كاف، كما إذا قارض صاحب المال مضاربين اثنين، على أن له نصف الربح، ولأحدهما الثلث، وللآخر السدس، فنصيب الربح وإن كان معلوما، إلا أن المضاربة فاسدة، وسواء شرط ذلك صاحب المال أو شرطه المضاربان، وعلل ذلك ابن القاسم بأن أحدهما يأخذ بعض ربح صاحبه بغير شيء، ولكن ماهو الحكم ؟ قال أصبغ فإن فات بالعمل كان نصف الربح لرب المال والنصف بين العاملين، على أن يرجع صاحب السدس على صاحبه بإجازة في فضل جزئه. وقيل غير ذلك (26).

والذي يجري على قواعد المذهب في المضاربة الفاسدة أن المضاربين يكونان أجيرين لهما أجرة المثل.

ومحل هذا إذا لم يشترطا أن العمل يكون على قدر أجزائهما من الربح بحيث يكون عمل كل واحد منهما مساويا لنصيبه من الربح، وفي المثال المتقدم لو كان عمل الذي سيأخذ الثلثين من نصف الربح الباقي مضاعفا لعمل الذي سيأخذ الثلث لجازت المضاربة بهذه المواصفة (27).

الشرط الثاني : أن يكون الربح مشاعا وجزءا من مال المضاربة لامن غيره.

الشرط الثالث : أن لا يختص أحدهما بشيء معين مثل لي في كل مائة واحد والباقي بيننا، إلا ما يضطر اليه المضارب مِنْ نفقة أو مؤنة سفر فيستثني من الربح المشاع.

وفي هذه الضوء ندرك أن الربح لايبنى على عقد المضاربة لأن رأس المال النقدي في النظرة الاسلامية لايكون منتجا إلا بعد توظيفه في فروع من فرع الاقتصاد وحصو له على ربح (28)، وفي النظرة الرأسمالية فإن رأس المال النقدي ينتج مالا من جنسه بمجرد أن يتسمله المنظم أو المصرف الذي ينوب عنه، لأنه سيدفعه اليه في آخر المطاف، ولكن بفوائد تزيد عن معدل الفوائد التي التزم بدفعها الى صاحب المال، فلو فرضنا أن المصرف تسلم رأس مال نقدي بفائدة 8 % فسيدفعه الى المنظم بفائدة إنتاجية قد تبلغ هي أيضا 8 % في مقابل وساطته، فيكون المنظم قد تسلم رأس المال النقدي بفائدة 16 % وهذه النسبة تمثل فائدة رأس المال النقدي التي يحصل عليها المدخر، والفائدة التي يحصل عليها المصرف وبذلك يتشابك رأس المال الربوي بفائدته، لتصبح هي بدورها رأس مال ربوي آخر منبثقا عن نظام المصارف في معاملاتها مع المستثمرين، وينتج عن هذا كله أن رأس المال الربوي المزدوج ـ واسميه بهذا الاسم لاشتماله على فائدتين هو ما يعتبره الاقتصاديون مصدرا من مصادر الانتاج، لأن أصحاب رؤوس الأموال لايستثمرون غالبا، وإنما يودعون مدخراتهم المالية في المصارف في مقابل نسبة مئوية ثابتة، يقول هنري كيتون :

«إن الفرد الذي يدخر، إنما يقوم بتوظيفات، وليس هو في الغالب ذاك الذي يستثمر» (29).

د ـ الادارة ونفقات التسيير :

المضارب مستمثر له كامل الحرية في تصريف رأس المال واختيار الوجه الذي يراه يدر ربحا أكثر من غيره، كما أن له أن يأخذ رؤوس أموال متعددة (30) قصد تجميعها لتمويل مشروع استثماري أو مقاولة ذات أصناف متنوعة، والفقهاء حين يجيزون خلط رؤوس الأموال يشترطون لهذا الجواز شرطين :

الأول : أن لايشغله رأس المال الأول عن استثمار رأس المال الثاني بمعنى التأكد من عدم وجود رأس مال غير مستمثر.

الثاني : أن لايقدم المضارب على خلط رؤوس الأموال تحت تأثير شرط يمليه أحد أصحاب رؤوس الأموال، فمن أملى هذا الشرط يكون عقد المضاربة معه فاسدا (31).

وهذان الشرطان يساهمان بنصيب وافر في توسيع الحرية التي يتمتع بها المضارب في إدارة رؤوس الأموال، ولا فرق بين أن يحول رأس المال النقدي الى رأس مال تجاري أو صناعي أو فلاحي.

فيجوز له أن يبيع ويشتري إذا كان تاجرا، ويفعل ما يفعله التجار من سفر ووديعة واختيار أنواع السلع وتحري الأسواق.

كما يجوز له أن يزرع في أرض يشتريها من مال القراض أو يكتريها، مثل ما يجوز له أن يبرم عقدة مساقاة على أشجار لرجل آخر، وينفق عليها من مال المضاربة وهذا يوافق ما للامام في المدونة (32).

ـ كما يجوز له أن يحول رأس مال المضاربة إلى رأس مال صناعي، ويخرج منه نفقات الاستهلاك والانتاج (33).

ـ وهناك أحكام عامة تتعلق بإدارة رأس المال وتحريكه نذكر منها على الخصوص ما يلي :

ـ كل من أخذ مالا للتنمية، فأداره الى ما لاينميه ضمن هلاكه ونقصه. (34) وإن أداره بالتعادي الى ما أنماه، فإن صاحب رأس المال يشاركه في هذا النماء، وليس للمضارب أن يستبد به وحده، لأن إدارة المال في وجه لم يؤذن له فيه، وإن كان تعديا، فهو يشبه تعدي الوكيل والمبضع معه، بخلاف تعدي الغاصب والمودع في حركة المال، فيكون النماء لهما وحدهما، دون صاحب المال، كما سبق البيان (35).

من مقال علال الخياري

ـ إذا تأخر الشروع في إدارة رأس المال فليس لصاحبه أن يطلب المضارب بتعويض ما فوته عليه من ربح بسبب هذا التأخير.

ـ وحيث إن المضارب هو المسؤول عن إدارة شركة المضاربة، فإن هذه المسؤولية لا تتيح له أن ينتقل من دور المنظم بين عمله ورأس مال الشركة الى دور المساهمة بماله في أية دورة إنتاجية، نعم يجوز له ذلك بإذن صاحب المال، لأنه إذا جاز له أن يقارض غيره بإذن، جاز له أن يشارك بماله إذن كذلك (36).

ـ وفيما يخص نفقات التسيير فإنها تنقسم الى قسمين :

ـ نفقات يباشرها المضارب لِسَدِّ حاجاته الضرورية.

ونفقات يباشرها لصالح المشروع الاستثماري سواء كانت نفقات استهلاك أو نفقات إنتاج.

القسم الأول : نفقات يباشرها المضارب لسد حاجاته الضرورية (37)

ـ المضارب الذي يقوم بتصريف راس مال المضاربة في وجه من وجوه الاقتصاد، إما أن يكون مقيما بين أهله أو مسافراً سفرا بعيدا أو قريبا.

1)ـ مكان الاقامة :

إذا كان المضارب مقيما في مدينة، أو غريبا قدم إليها بنية الاقامة، وإن لم يكن له أهل في الحالتين، لا يجوز له أن ينفق من مال المضاربة، إلا أن يشتغل في السوق يبيع ويشتري ولا ينقلب الى أهله، فلا بأس أن يتغذى من مال المضاربة.

2)ـ السفر البعيد :

يجوز للمضارب إذا سافر سفرا بعيدا أن ينفق على نفسه من مال المضاربة ذهابا وإيابا، وإن لم يشتر شيئا، وحين يعود إلى أهله لايأكل منه شيئا ولا يكتسي، وله أن يرد رأس المال بعد النفقة الى صاحبه.

لكن يشترط في السفر الى مكان بعيد أن لا يكون له فيه أهل، وقد سأل سحنون ابن القاسم : «أرأيت إن أخذت مالا قراضا بالفسطاط، ولي أهل في المدينة، وأهل بالفسطاط فكنت أتجر فيما بين المدينة وبين الفسطاط ؟ قال : أرى في مسألتك أن لايكون لهذا نفقة لا في ذهابه ولا في رجوعه، لأنه ذهب الى أهله ورجع الى أهله» (38)

3) ـ السفر القريب :

لا يجوز للمضارب إذا سافر سفرا قريبا أن ينفق على حاجاته من مال المضاربة إلا أن يكون مقيما بمكان يحتاج فيه الى كسوة أمثاله من التجار، وهذا يدخل في إطار الانفاق لصالح التجارة.

القسم الثاني : نفقات يباشرها المضارب لصالح المشروع الاستثماري

ـ يجوز للمضارب أن يمارس كل حركة من شأنها تنمية رصيد المال، ومن ذلك حرية الانفاق المالي على ما يتطلبه المشروع الاستثماري من خدمات أو موارد استهلاك أو إنتاج، مثل :

ـ تأجير من يعمل معه في التجارة.

ـ تأجير خدمات الصناع والحرفيين والمزارعين قصد تحويل رأس المال الصناعي أو الفلاحي الى وضعه النهائي لعرضه في الأسواق، كما يجوز له مباشرة التحويل بنفسه في مقابل أجرة يقتطعها من رأس المال، كما سبقت الاشارة الى ذلك.

ـ كراء المحلات التجارية والأراضي الزراعية وآلات الصناعة والفلاحة والنقل كما يجوز له شراء ما يحتاج اليه من كل ذلك حسب اجتهاده بشرط أن يكون الشراء في أرض أمان، فإن اشترى أو زرع في أرض ظلم ضمن ما ضاع من رأس المال.

هـ ـ إمكانية تحويل رأسمال المضاربة الى رأس مال تجاري أو فلاحي أو صناعي :

المضارب مستمثر له كامل الحرية في تصريف رأس المال النقدي وفي اختيار الوجه

الاقتصادي الذي يراه أكثر ربحا من غيره، كما يجوز له تجميع رؤوس أموال متعددة للقيام بمشروع تجاري أو فلاحي، أو صناعي، وذلك في إطار الاحكام والقواعد التي تحدد النمط الاقتصادي ومشروعيته في الاسلام.

ـ فالمضارب إذا كان تاجرا يجوز له أن يبيع ويشتري بمال المضاربة ويفعل ما يفعله التجار من سفر ووديعة واختيار السلع والأسواق، كما سبق البيان.

ـ كما يجوز له أن يزرع في أرض يكتريها من مال المضاربة أو يشتريها، مثل مايجوز له أن يبرم عقود المسافاة والمزارعة والمشاجرة وينفق عليها من مال المضاربة (39).

ـ كما يجوز له أن يحول المضاربة الى رأس مال صناعي كإنشاء مقاولة صناعية لانتاج البضائع أو جعلها في شكلها النهائي قصد عرضها في الأسواق (40).

وفي هذا المجال، ذكر الفقهاء أن المقارض إذا كان صانعا يعمل بيده ذهبا أو فضة ويحولهما الى حلي، فما كان من ربح فهو بينهما، بعد أن يأخذ أجرة صناعته (41)، وإذا لم يكن صانعا واشترى سلعة فأدخل عليها صنعة كالصبغ مثلا، فإن أنفق عليها من مال المضاربة فما يكون من الربح في مقابل الصنعة فهو بينهما على ما دخلا عليه، ولنفرض أن ثمن الثوب قبل الصبغ مائة درهم، وثمنه بعد الصبغ مائة وعشرون، في حين كان الثمن الأصلي لشراء الثوب ثمانين درهما، يضاف إليه ثمن الصبغ عشرة، فيكون الربح ثلاثين درهما، يقتسمانها على ما اتفقا عليه، (42) لكن إذا نظرنا الى هذا المثال بتدقيق نجد أن جزءا صغيرا من رأس المال هو الذي تحول الى رأس مال صناعي، ونستطيع أن نأتي بمثال آخر تكون السلعة فيه مادة خام تساوي عشرة دراهم، وحين دخلتها الصنعة أصبحت تساوي مائة وعشرين درهما، في حين بلغ ثمن الانفاق المالي على الانجاز الصناعي ستين درهما، ففي هذا المثال يكون الجزء الأكبر رأس مال صناعي.

ومعنى هذا أن ثمن الانفاق الذي يبذله المقارض على صناعة السلعة قبل وضعها في شكلها النهائي يعتبر رأس مال له ربحه كرأس المال التجاري، إذن فالمقارض سواء حول رأس المال النقدي الى رأس مال تجاري أو فلاحي أو صناعي لايخرج عن وصفه مستثمرا بطريق المضاربة مادامت الغاية التي يهدف اليها هي الاسترباح والزيادة في رصيد رأس المال ونمائه.

وهناك مسألة يختلف فيها رأي الفقهاء، وهي إذا كان ثمن الانفاق الصناعي ليس من رأس مال المضاربة، بل من مال المضارب نفسه، وفي المدونة «قلت لمالك» فإن صبغ البزبمال من عنده وقد اشترى بجميع مال القراض بزا، (قال) : أما الصبغ فيقال لرب المال : ادفع اليه المال الذي صبغ به، وإلا كان شريكا معك بما صبغ من الثياب ».

وحسب معطيات هذا النص فهناك حالتان للانفاق الصناعي :

ـ الحالة الأولى : أن يدفع رب المال الى المضارب ثمن الانفاق الصناعي فحينئذ يكون المضارب كأنه أنفق من مال المضاربة، فمَا يحصل من الربح بعد بيع السلعة فهو بينهما على ما اتفقا عليه. وهذا دليل على جواز تحويل رأس المال المضاربة الى رأس مال صناعي. كما هو واضح.

ـ الحالة الثانية : أن يمتنع صاحب المال عن دفع ثمن الانفاق الصناعي الى المضارب فحينئذ يكون كل واحد منهما شريكا لصاحبه بقدر المال الذي انفقه على السلعة، وبعد البيع يقتطع المضارب راس ماله الصناعي مع ما نابه من الربح، لأنه سلعة قائمة، كما سبق البيان.

وهذا رأي الامام مالك وبه قال ابن القاسم، ويرى سحنون غير هذا الرأي قال «إن دفع رب المال الى العامل قيمة الصبغ لم يكن الصبغ على القراض» (43).

وعلل رأيه بأنّ صاحب المال إن رضي أن يدفع الى المضارب قيمة الصبغ على أن تكون السلع المصبوغة مضاربة، فكأنه دفع اليه مالا مضاربة فاشترى به سلعا، ثم دفع اليه مالا آخر مضاربة على أن يخلطه بالمال الأول، وذلك لايجوز. وهذا قياس فيه كثير من التمحل والاخفاق كما لايخفى.

وفي هذا الضوء يتضح أن دور المضارب في الفقه الاسلامي يشبه من حيث المظهر دور المنظم في الاقتصاد المعاصر، بحيث لا نرى أي فرق بينهما، إلا فيما يرجع للمنطلق الذي ينطلق منه كل واحد منهما، فالمضارب ينطلق من موقع أمين ليعود اليه وهو في أمان أيضا سواء نجح المشروع

الاستثماري أو لم ينجح، لأن مسؤوليته لا تتجاوز حفظ المال والعمل على استثماره، بينما المنظم محروم من الانطلاق مِنْ مثل هذا الموقع الأمين، لأن مسؤوليته تتجاوز حفظ المال والعمل على استثماره، الى وجوب ضمان ما ضاع منه، ولو لم تكن له يد في هذا الضياع، كما إذا كسدت السوق أو انقضى الأجل المضروب في أداء فائدة ما بيده من مال، ولو لم ينته من عمله أو مازال في طور الاعداد.

ثانيا : المضاربة المحظورة وإشكالية تصفيتها :

تكون المضاربة محظورة إذا فقدت أحد العناصر الأساسية أو شرطا من شروط صحة العقد، وقد يكون العقد صحيحا ولكن يطرأ على المضاربة ما يفسد سيرها العادي (44) مثل أن يتعدى أحدهما، أو يشترط لنفسه من الربح شيئا زائدا على ما انعقدت عليه المضاربة، أو يدفع المال الى مضارب آخر بنسبة أقل، (45) ويحصل على التفاوت بين النسبتين بدون عمل، وقد اتفق الفقهاء على أن كل مضاربة محظورة تجب تصفيتها، فإن كانت قبل العمل فلا يرد أي إشكال إذ يرد المال الى صاحبه، وإن كانت بعد العمل، فقد اختلف رأيهم حول ما يجب للمضارب في مقابل عمله على أربعة أقوال، نذكر اثنين منها نظرا لظهور علتهما وقوة من يقول بهما :

الأول : إن المضارب يرد الى النسبة المائوية التي يتعامل بها مثله في مجال المضاربة، وبه قال أشهب وابن الماجشون.

الثاني : أنه يرد الى أجرة مثله، وبه قال الشافعي وأبو حنيفة وهو رواية عن مالك.

واختلف رأي ابن القاسم في صور المضاربة الفاسدة، فقال في أكثرها : إن فيها أجرة المثل، وفي بعضها : إن فيها قراض المثل وهي سبعة القراض بالعروض - والقراض بالضَّمان - والقراض الى أجل - والقراض المبهم - وإذا قال : اعمل على أن لك في المال شركا - وإذا اختلف المتقارضان واتيا بما يشبه فحلفا على دعواهما - وإذا كان دفع اليه المال على ان لايشتري به إلا بالدين فاشترى بالنقد أو على ألا يشتري إلا سلعة كذا والسلعة غير موجودة فاشترى غير ما أمر به (46).

وما ذهب اليه ابن القاسم يجمع بين القولين السابقين وقد يعتبر قولا ثالثا في المسألة، ويظهر أن القول الثاني هو أصح الأقوال في أن المضاربة مستثناة من الاجارة المجهولة، فحين فسادها يحسن الرجوع الى الاصل المتمثل في أجرة المثل، وأيضا فإن الرجوع الى مضاربة المثل يبقى حالة المضاربة ثابتة، مع أننا حكمنا بوجوب فسخ العقد، فوجب أن ننتقل الى حالة أخرى وهي الاجارة، سيما وأن الاجارة هي القاعدة التي استثنينا منها المضاربة التي هي رخصة روعي فيها الرفق بالناس (47).

ثالثا : النتيجة المستخلصة (شمولية المضاربة للشركات التجارية والفلاحية والصناعية)

إن استثمار رؤوس الأموال بطريقة المضاربة يتيح للمجتمع الاسلامي غنيه وفقيره فرصة المشاركة في الحركة الاقتصادية ودفع عجلة النمو بهدف القضاء على التضخم المالي وإزالة الفوارق الاجتماعية، لذلك أقر الاسلام هذه المؤسسة الاقتصادية التي تجمع بين رأس المال والعمل لانشاء مشاريع إنتاجية في ميادين التجارة والفلاحة والصناعة، قصد بناء اقتصاديات المجتمع الاسلامي على اساس من التعاون والتكامل.

وإذا كان المحور الذي تدور حوله أحكام المضاربة وهو التوفيق بين مصلحتين : مصلحة أصحاب رؤوس الأموال في تنمية ثرواتهم، ومصلحة أصحاب الأعمال في تمويل مشاريعهم الاستثمارية، فإن المعايير الشرعية التي تنظم توزيع الربح بين الطرفين قد روعي فيها جانب المساواة في الحقوق والواجبات حتى لا تطغى مصلحة أحدهما على مصلحة الآخر

ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

1) - وجوب تسليم رأس المال النقدي للمضارب يدا بيد، بدون وسيط، لماذا ؟ لأن الوساطة بين صاحب المال والمضارب من شأنها تعقيد المعاملات وتقليل حصة الربح ولذلك كان المضارب ضامنا لرأس المال والربح معا (48) إذا أشرك غيره منعه في ترويج رأس المال إلا أن يأذن له صاحب

المال بذلك، ويتفق الثلاثة على نسبة مئوية من الربح على قدر عمل المضارب، (49) وقد وقع التركيز على هذه المسألة منذ البداية نظرا لما تكتسيه من خطورة في الوقت الحاضر، فقد أصبح إنجاز عملية الاستثمار يتوقف على وسيط بين رأس المال والعمل، وهذا الوسيط هو المصرف الربوي الذي يقترض بفائدة ويقرض بفائدة أكبر، وبذلك تحول القراض الى قرض، وقد حاول بعض الفقهاء إضفاء الصفة الشرعية على هذا الوسيط (عاملا بجعل) يأخذ (جعله) من صاحب رأس المال على أن تكون بعد ذلك نسبة مائوية بينه وبين المستثمر في الربح (50) غير أن هذا التخريج لايخلو من إفلاس كما في الطريقة الغربية التي ترتكز على ضرب الآجال لاستخلاص الفوائد وإرجاع رأس المال، ولو أن المستثمر لم يباشر العمل بالفعل، بل عليه أن يؤدي ما ترتب على رأس المال من فوائد، ولو لم يسحبه بالفعل فإذا سحبه قبل حلول أجل السحب، تضاعفت الفوائد.

وليس ضرب الاجل وحده مفسدا للعقد، لما فيه من تحجير على المضارب، بل يشبهه كل ما من شأنه أن يحد من حرية المضارب ويمنعه من التصرف الذي يرى فيه فائدة مشتركة مثل فرض أمين عليه أو محاسبته، وقد يقال إن في عدم ضرب الأجل وانتفاء المحاسبة ضررا على صاحب المال، مما يسبب له توترا نفسيا وقلقا على مصير رأس ماله، والحال أنا وضعنا في طريقه حواجز تمنعه من كل رؤية ؟ في الواقع أن هذا السؤال غير وارد، لأن صاحب المال والمضارب ملزمان أصلا بأداء الزكاة على رأس كل سنة، وذلك يتضمن معنى ضرب الأجل والمحاسبة، فانتفى كل توتر أو خوف على المصير، فيما يرجع للعمليات التنموية أو الاستثمارات ذات المدى البعيد أو المتوسط.

2 - شمول الاستثمار بطريق المضاربة للقطاع الخاص والقطاع العام، فكما يجوز للأفراد التعامل بالمضاربة فيما بينهم، يجوز للدولة أن تسلك هذا المسلك مع المستثمرين في القطاع الخاص، (51) قصد إحداث التوازن في القطاعات الاقتصادية، والقضاء على التضخم المالي وتنشيط القطاع الخاص فيما لو طرأ على حركته فتور أو خلل.

3 - إذا كانت المضاربة عبارة عن دفع صاحب المال الى المضارب مالا للاتجار به عن طريق البيع والشراء على أساس الاشتراك في الربح، فلا يجوز قيام المضاربة والاشتراك في الربح على أساس أداة الانتاج، كأن يتسلم صانع مثلا آلات الطباعة والتجهيز من آخر على أساس المضاربة والاشتراك في الربح، فإن وقع فليس لمالك الآلات سوى أجرة المثل في مقابل انتفاع الصانع بالآلات. (52).

4 - لاضمان على العامل فيما ضاع من رأس المال بسبب كساد الأسواق أو غصب أو غرق أو حرق وغير ذلك مما ليس للمضارب يد فيه، (53) لأن ضمان المضارب لرأس المال مع فائدته كما هو الحال في النظام الاقتصادي الغربي يعرض المستثمرين في مثل تلك الأحوال الي الفلس وفساد الذمة.

والتشريع الاسلامي يجعل عمل المستثمرين في مقابل الربح لافي مقابل رأس المال، ويؤيد هذا الرأي عدة أمور، منها أن صاحب المال يقول للمضارب المستثمر : اعمل بهذا المال وما كان من ربح فهو بيننا على النصف مثلا، إذن فهما شريكان في الربح لافي رأس المال، ولذا لو قال له : اعمل ولك شرك في هذا المال، (54) بطل عقد المضاربة وأصبح المضارب أجيرا بنفس الشرط، وزيادة في الايضاح فإذا سلم رأس المال كاملا بعد الدورة الانتاجية فإن الخاسر هو المضارب وحده، لأن عمله يتعلق بالربح لابرأس المال. ومنها أيضا أن رأس المال معرض في نفسه للربح والخسران ولو لم يقع تحريكه، ألا ترى إلى تغير القيمة التبادلية للنقد بسبب ارتفاع أو هبوط العملة في سوق الصرف، والمضارب يكون بمنجاة من تأثير هذه المواصفات.

5 - ضرب الأجل مفسد للمضاربة، فلو شرط صاحب المال على العامل أجلا تنتهي إليه عملية الاستثمار المشترك بينهما، فسد العقد، (55) بخلاف الاستثمار الذي من الممكن أن يستمر على اعتبار أن المقارض أصبح أجيرا، مشاركا في الربح.

6 - بعد أن تعرفنا على المضاربة في صيغتها التجارية والفلاحية والصناعية ألا يحق لنا حينئذ أن نطرح السؤال التالي : ماهي المهمة التي من الممكن أن تقوم بها المضاربة في عملية التنمية ضمن إقتصاديات بلدان العالم الاسلامي ؟

إن الاجابة عن هذا السؤال تكتسي أهمية بالغة بالنظر الى أن طبيعة المضاربة تقتضي أن يكون إسهامها محدود الآجل وهو ما يتنافى مع طبيعة إقامة مشاريع تنموية محلية أو جهوية على المدى المتوسط والبعيد، سيما وأن تنمية العالم الاسلامي لا تتوقف فقط على تمويل المشاريع الانتاجية الصغرى أو قصيرة المدى مثل مشاريع قطاع أهل المهن الحرة والحرفيين أو خريجي كليات الطب والصيدلة، ومعاهد الصناعة والتكنولوجيا، بل تتوقف علمية التنمية بالاضافة الى ذلك على تمويل المشاريع التنموية الكبرى، لذلك فلا مناص من إنشاء بنوك التنمية المحلية وبنوك الاستثمار الخاصة بتمويل المشاريع ذات المدى المتوسط أو البعيد. وأحسن صيغة لربط العلاقة بين البنك والمودعين هي صيغة المضاربة الصالحة لتكون كنقطة ارتكاز للعمل المصرفي والقابلة لتحول رأس المال النقدي الى إنجاز مشروع تجاري او صناعي او فلاحي.

7 - في المضاربة يعطي الاقتصاد الاسلامي للعمل حق مشاركة رأس المال على قدم المساواة في مجال النشاط الاستثماري والتنموي، بل يسمح له بحق المبادرة واتخاذ القرار، وهذا ما لاتسمَحُ به التيارات الاقتصادية المعاصرة وبالله التوفيق.

عـلال الخيـاري

المصادر والمراجع

(1) الامام النسفي ـ طلبة الطلبة ـ ص : 148 مصورة عن طبعة القاهرة : 1311 هـ مكتبة المثنى بدون تاريخ.
(2) الحطاب ـ مواهب الجليل لشرح مختصر خليل ـ ج : 5 ص : 355 مكتبة النجاح ليبيا بدون إشارة الى طبعة أو تاريخ.
(3) ابن رشد (الحفيد) ـ بداية المجتهد ـ ج : 2. ص : 177 دار الفكر بيروت بدون إشارة الى طبعة أو تاريخ.
(4) الحطاب ـ مواهب الجليل ـ ج : 5 ص : 355.
(5) سليم رستم باز ـ شرح المجلة ـ ص : 744 ط : 3. المطبعة الأدبية بيروت 1923.
(6) الامام النسفي ـ طلبة الطلبة ـ ص : 148.
(7) المواق ـ التاج والأكليل ـ بهامش مواهب الجليل. ج : 5. ص : 355.
(8) نجم الدين الحلي ـ المختصر النافع ـ ص : 170. مطبعة الأسدى طهران 1387 هـ بدون إشارة الى عدد الطبعات.
(9) ابن رشد بداية المجتهد ـ ج : 2 ـ ص 178.
(10) الضمير يعود الى أبي ليلى (74 ـ 148 هـ) هو محمد بن عبد الرحمن. له أخبار مع أبي حنيفة وغيره.
(11) المرجع السابق والصفحة.
(12) المواق ـ التاج والاكليل ـ بهامش مواهب الجليل ج : 5. ص : 361.
(13) ابن رشد ـ بداية المجتهد ـ ج : 2 ـ ص : 179.
(14) المرجع السابق والصفحة.
(15) الدكتور وهبة الزحيلي ـ الفقه الاسلامي في أسلوبه الجديد ـ ص : 659. ط : 2 بيروت بدون إشارة الى مطبعة أو تاريخ.
(16) سليم رستم باز. شرح المجلة. ص : 747.
(17) النكتة واضحة في استعمال القراض مرة والمضاربة مرة أخرى.
(18) بداية المجتهد ج : 2 ص : 179.
(19) ابن همام. تكملة فتح القدير، ج : 8 ص : 452. ط : 3 دار الفكر بيروت 1393 هـ 1973 م
(20) كما لا يجوز أن يشترط في العقد امتداد العمل طـول حياتهما، لأن المضاربة لا تلزم بالعقد، ولكل واحد منهما التحلل من عقد المضاربة متى شاء.
(21) الحطاب ـ مواهب الجليل. ج : 5 ـ ص : 362.
(22) الامام مالك ـ المدونة الكبرى ـ ج 12 م 5 ص 89 وأيضا من 115 الى 118.
(23) ابن همام ـ تكملة فتح القدير ـ ج : 8 ص : 453.
(24) الامام مالك ـ المدونة الكبرى. م : 5 ـ ج : 12. ص : 91.

(25) العرف غلبة ظاهرة من ظواهر المعاملات على جميع البلاد أو بعضها، وهو معمول به في الشرع لقوله تعالى : «وامر بالعرف» الأعراف الآية 199.
(26) المواق ـ التاج والاكليل ـ ج : 5 ـ ص : 367.
(27) المرجع السابق والصفحة.
(28) محمد باقر الصدر ـ اقتصادنا ـ ج : 2. ص : 532. ط : 4. بيروت 1393 هـ 1973.
(29) هنريه كيتون ـ الاقتصاد السياسي ـ ص : 177. الوز. ط. 11. باريس 1975 بالفرنسية.
(30) الامام مالك المدونة الكبرى ـ م : 5 ج : 12 ـ ص : 106 و107.
(31) المواق ـ التاج والاكليل ـ ج : 5 ص : 366.
(32) الحطاب ـ مواهب الجليل ـ ج : 5 ص : 362.
(33) الامام مالك ـ المدونة الكبرى ـ م 5 ج 12 ص : 96.
(34) فإذا أدار ما بقي في يده في وجه من وجوه الاقتصاد فربح، فإن رأس المال يجبر من الربح. انظر المرجع السابق من صفحة 100 الى 120. وأيضا شراح الشيخ خليل عند قوله : »ككل آخذ مالا للتنمية فتعدى».
(35) الحطاب ـ مواهب الجليل ـ ج : 5 من صفحة 359 الى 371.
(36) اختلف رأي العلماء في وجوب النفقة للمضاربة على ثلاثة أقوال.
ـ قال الامام الشافعي في الأظهر من قوليه : لا نفقة للمضارب على نفسه من مال المضاربة لاحضرا ولا سفرا، إلا أن يأذن له رب المال.
ـ وقال الحسن البصري وغيره : له نفقته حضرا أو سفرا.
ـ وقال جمهور الفقهاء منهم مالك وأبو حنيفة والزيدية : للمضارب النفقة في السفر من مال المضاربة بما يحتاج اليه من طعام وكسوة، إلا أن الامام مالك قال : إذا كان المال يحتمل ذلك. انظر المدونة الكبرى م : 5. ج : 12 ص : 92، وبداية المجتهد ج : 2 ص : 238. وتكملة فتح القدير لابن همام ج : 7. ص : 81.
(37) وكذلك المضارب الذي يأخذ مال المضاربة في مكان الغربة، ثم يسافر به الى مكان إقامته، فليس له أن ينفق على حاجاته حتى يقفل راجعا، حينئذ يجوز له الأخذ من مال المضاربة إذا احتبس على العمل وتنمية رأس المال.
(38) راجع رأي الامام مالك في المقارض يزرع بمال القراض أو يسافر به. المدونة الكبرى م : 5 ج : 12 ص : 120.
(39) الذي أنكره الامام مالك في تحويل رأس مال المضاربة الى رأس مال صناعي هو اشتراط عمل المضارب بيده، كان يحول السلعة من شكل الى شكل آخر، ويكون الربح بينهما. راجع المصدر السابق ص : 89.
(40) والفرق بين هذه الصورة وبين الصورة الأولى التي أنكرها الامام مالك، هو أن المضارب في هذه الصورة الثانية أخذ أجرة صناعته، بخلاف الأولى فهي على النصف بدون اقتطاع أجرة الصنعة من الربح.
(41) قال الامام مالك : «إن الصبغ رأس مال، يحسب للصبغ رأس ماله وربحه» المصدر السابق ص 96.
(42) المصدر السابق والصفحة.
(43) عند الحنفية تبطل بما تبطل به الوكالة كموت أحد المتعاقدين خلافا للملكية. راجع المبسوط للسرخمي. ج : 19 ص : 4 10. ط : 3 دار المعرفة. بيروت 1398 هـ 1978 م.
(44) محمد باقر الصدر ـ اقتصادنا ـ ج : 2 ص : 532.
(45) بداية المجتهد. ج : 2. ص : 183.
(46) وهذا الاستثناء استحسان شرعي، لأن الاستحسان قد يطلق على مخالفة القياس العام بنص خاص، والمضاربة من هذا الباب.
راجع شرح الدردير لمختصر خليل بحاشية عرفة الدسوقي ج : 3 ص : 103 المطبعة الأزهرية 1345 هـ. 1937 م.
(47) فإذا اتفق صاحب المال مع المضارب الأول على النصف من الربح، أخذ صاحب المال النصف المتفق عليه، والنصف الباقي يقسمه المضارب الاول مع المضارب الثاني على ما اتفقا عليه.
(48) المواق ـ التاج والاكليل ـ بحاشية مواهب الجليل ج : 5 ص : 367.
(49) محمد باقر الصدر ـ اقتصادنا ـ ج : 1 ص : 26 وما بعدها.

(50) قال في المجلة المادة 1428 : «الضرر والخسارة يعود في كل حال على رب المال وإذا اشترط أن يكون مشتركا بينه وبين المضارب فلا يعتبر الشرط».

(51) هذا رأي مالك، وقال غيره هما شريكان على النصف. راجع المدونة الكبرى ج : 12 ص : 92.

(52) لأن حالة الاستعجال قد تضطر المضارب الى البيع بأبخس الأثمان. وفي المجلة المادة 1423 : «إذا وقت رب المضاربة بوقت معين تنفسخ المضاربة بمضي ذلك الوقت».

(53) الحطاب ـ مواهب الجليل ـ ج : 5. ص : 356. وأيضا طلبة الطلبة للامام النسفي.

(54) محمد باقر الصدر ـ اقتصادنا ـ ج : 2. ص : 534.

تأثر قدامة بن جعفر بالنقد اليوناني
من خلال كتابه «نقد الشعر» تابع

امحمد العلمي
كلية الآداب
مكناس

وسنتناول في هذا المقال الجوانب التالية من كتاب «نقد الشعر» لقدامة بن جعفر، وهي كالآتي :
نعوت المعاني الدال عليها الشعر :
نعت المدح ـ الهجاء ـ الوصف ـ التشبيه ـ النسيب ـ الرثاء المعاني الشعرية وما يعمها من نعوت :
(صحة التقسيم) محاولين أن نحصر مجال بحثنا في بعض جوانب التشابه والاختلاف أو التقارب بين ما في كتاب «نقد الشعر» وبين ما نجد من ذلك في النقد اليوناني الذي لا شك أن قدامة قد اضطلع عليه مترجما ضمن ما ترجم من أنواع الثقافات المختلفة في العصر العباسي الى اللغة العربية (1).

ويدخل عند قدامة في كتابه «نقد الشعر» في نعت المعاني الدال عليها الشعر ستة أغراض وهي بالتتابع :
المدّيح ـ والهجاء ـ والمراثي ـ والتشبيه ـ والوصف، والنسيب،

أ ـ نعت المديح

ويبدأ قدامة هذه الأغراض بباب المديح فيستحسن قول عمر بن الخطاب في وصف زهير بن أبي سلمى الذي لم يكن يمدح الرجل إلا بما يكون للرجال.
«فإن في هذا القول إذا فهم وعمل به منفعة عامة، وهي العلم بأنه إذا كان الواجب ألا يمدح الرجال إلا بما يكون لهم وفيهم، فكذا يجب أن لا يمدح شيء غيرهم إلا بما يكون له وفيه، وبما يليق به ولا ينافره ومنفعة أخرى ثانية وهي توكيد ما قلنا في أول كلامنا في المعاني من أن الواجب فيها قصد الغرض المطلوب على حقه، وترك العدول عنه إلى مالا يشبهه» (2).

فقدامة يؤكد على ضرورة حصر القول في مجال المدح، وألا يتعدى ذلك الى شيء آخر.
والملاحظ أن قدامة في هذه المقدمة لغرض المدح يؤكد صلته بأرسطو فكلامه هنا شبيه بما جاء في الفصل التاسع من كتاب الخطابة. يقول أرسطو في ذلك :
«وبما أنه قد يحدث كثيرا أننا نمدح جادين أو هازلين إنسانا أو إلها وقد يحدث أيضا أن نمدح كائنات جامدة، وحيوانات تصادفنا في طريقنا وجب أن نعرف على هذي الطريقة التي سلكناها في المقدمات ما يلزم للاستدلال في مثل هذه الموضوعات» (3).

ويرى قدامة أن الفلاسفة والحكماء اليونانيين الذين سماهم بأهل الألباب قد اتفقوا على أن تكُونَ صفات المدح تنحصر في:العقل والشجاعة والعدل والعفة، فالقاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال

مصيب، والمادح يغيرها مخطيء، مع التفاوت في الجمع بين هذه الخصال النفسية الأربع. والبالغ في الاجادة القصوى من الشعراء المادحين من استطاع أن يجمع بين هذه الفضائل النفسية في مدحة ولم يقتصر على البعض منها. كما فعل زهير بن أبي سلمى في مدحه هرم بن سنان الذي استوعب في أبيات قليلة المدح بالأربع الخصال. وذلك في قوله :

أخي ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله

فوصفه في هذا لبيت بالعفة لقلة امعانه في اللذات، وأنه لاينفد ماله فيها، وبالسخاء لاهلاكه ماله في النوال، وانحرافه الى ذلك من اللذات وذلك هو العدل. ثم قال :

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك معطيه الذي أنت سائله

فزاد في وصف السخاء منه بأن جعله يهش له، ولا يلحقه مضض ولا تكره لفعله ثم قال :

فمن مثل حصن في الحروب ومثله لانكار ضيم أو لخصم يجادله

وأتى في هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة والعقل، فاستوعب زهير في أبياته هذه، المدح بالأربع الخصال التي هي فضائل الانسان على الحقيقة، وزاد في ذلك الوفاء، وإن كان داخلا في هذه الأربع. (4) ثم يعدد قُدَامَة فروع كل فضيلة من هذه الفضائل النفسية. ف «من أقسام العقل : ثقابة المعرفة، والحياء، والبيان، والسياسة، والكفاية والصدع بالحجة، والعلم، والحلم عن سفاهة الجهلة، وغير ذلك مما يجري هذا المجرى.

ومن أقسام العفة : القناعة، وقلة الشره، وطهارة الازار، وغير ذلك مما يجري مجراه ومن أقسام الشجاعة : الحماية والدفاع، والأخذ بالثأر، والنكاية في العدو، والمهابة وقتل الاقران و...

ومن أقسام العدل : السماحة، ويرادف السماحة : التغابن، والانظلام... (5) ومما تجدر الاشارة اليه أن تحديد قدامة للصفات الاجابية الأربع في غرض المديح قد جعله ذلك تلميذا شديد الاحتذاء لافلاطون الذي حدد هذه الصفات الأربع للمديح قبله. كما أن تمجيده للمدح بالفضائل النفسية مقتبس من ارسطو في كتابه الخطابة حيث يقول : «إن الجميل هو ما يستاهل المدح لأنه يؤثر لذاته، وما يؤثر لذاته يمدح، أو هو المقبول والمستحسن. واستحاسنه لأنه غاية. وإذا كان هذا هو الجميل لزم طبعا أن تكون الفضيلة في رأينا قوة تستطيع أن تمدنا بخيرات كثيرة، وتقدرنا على الاحتفاظ بها. والفضيلة قادرة أيضا على إيجاد كثير من الاعمال الطيبة المهمة النافعة في كل شيء... وأجزاء الفضيلة (مظاهرها) هي :
العدالة - والشجاعة - والمروءة - والعفة - والسخاء - والعظمة - والتسامح وصدق الحدس (اللب) - والحكمة» (6).

وقد شارك قدامة أرسطو في جميع الفضائل المذكورة باستثناء بعضها مثل أن الحكمة عند أرسطو جعلها قدامة عقلا. وأما الفضائل التي زادت عند أرسطو فقد جعلها قدامة فروعا.

وكان من الطبيعي أن تلقى آراء قدامة النقدية، خاصة في تقريره للمدح بالصفات النفسية وطرحه كل ما هو عرضي في المدح في نقده، معارضة قوية من النقاد بعده. فهذا الآمدي المتوفى عام 370 هـ. صاحب الموازنة والذي كان ولوعا بتتبع قدامة في أغلاطه النقدية، يقول :
«إنه خالف فيه مذاهب الامم كلها عربيها وأعجميها، لأن الوجه الجميل يزيد من الهيبة، ويتيمن به، ويدل على الخصال المحمودة».

ويعقب الخفاجي على هذا القول : «وهذا الذي ذكره أبو القاسم صحيح ولو لم يكن في ذلك إلا ما قد جبلت النفوس عليه من الميل الى الوجوه الحسان لكفى وأغنى». ثم يتابع كلامه : «فإن كان قدامة يعتقد أن ذلك ليس بفضيلة لما كان الانسان قد خلق عليه، فهذا حكم الفضائل النفسانية، فإن الكريم خلق كريما، والشجاع شجاعا، فكما لا يقدر القبيح الوجه أن يستبدل صورة غير صورته، فكذلك الجاهل لايقدر أن يستفيد عقلا فوق عقله» (7).

ويقول بدوي طبانة في هذا عن قدامة : «وهذا عنت كبير جشم به نفسه وأكد ذهنه. وكان يخفف عنه تلك المئونة، ويرفع عنه ذلك الاصر أن لا يحصر الفضائل في هذه الاربع، بل يُطلِقَها كما فعل أرسطو على كل حسن جميل من الاعمال الارادية التي يأتي بها الفضلاء من غير أن ينتظروا من

ورائها المنفعة أو الجزاء» (8).

وإذا كان قدامة لا يَعُدُّ المدح والهجاء بالآباء والأسلاف شيئا، فإن أرسطو يرى أن ذكرهم يزيد المدح حسنا والهجاء إيلاما. أما الثروة فيقول عنها أرسطو : «إنها ثمرة الملكية، وهي قوة يَعْتمدُ عليها فيما يقوم به الانسان، كما أنها دافع كبير في دوافع الخير» (9).

هذا التناقض في الاحتداء التام للمعلم الأول ربما جاءه من الاختلافات الواضحة بين طبيعة المدائح العربية والمدائح اليونانية. وكذا من سوء فهمه الجيد لكتاب «فن الشعر» نتيجة الأخطاء الكثيرة في الترجمة على نحوما أو ضحنا من قبل (10). وربما رجع ذلك أيضا الى أن قدامة وهو يطلع على الثقافات النقدية الواردة على العالم العربي إذاك كان مشغولا بالتوفيق بين ما ثقفه من ثقافات جديدة، وما في التراث من قواعد وأصول تعود النَاس عليها منذ القديم.
ولهذا فقد كانت إفادة قدامة من المنهج أكثر من إفادته من المادة النقدية ذاتها.

وقد تتبع الدكتور إحسان عباس العلاقة بين قدامة وكتاب الشعر لارسطو، ثم تساءل عن كيفية اهتداء قدامة الى هذا التفسير فرجع الى ترجمة «متى» التي لاشك أن قدامة قد اطلع عليها. وعنده أن هذه الترجمة العربية القديمة قد سمت التراجيديا باسم المديح، والكوميديا باسم الهجاء. ثم يقول : «ويبدو أن هذه التسمية الخاطئة قد رسخت في ذهن قدامة أن العرب واليونان يشتركون في هذين الفنين، وبحسب ما تستطيع أن تؤديه الترجمة العربية، يدور المديح حول أعمال الأفاضل. والهجاء على أعمال الأراذل، وما دام المديح يدور حول الفضائل، وما دامت الفضائل الكبرى أربعا، فلماذا لا يوفق قدامة بين النظريتين، لاسيما وأنه يقرأ في الترجمة المشوهة : «وأنواع المدائح أربعة أنواع» (11). ثم يقرأ في موضع آخر : وقد تجب ضرورة أن تكون جميع أجزاء صناعة المديح ستة أجزاء بحسب أي شيء كانت هذه الصناعات.... وتختلط هذه الأمور في ذهنه فيحاول أن يحلها، ويسعفه عقله المنطقي الى حل. هي أربع بالنسبة للفضائل الكبرى. وهي ست بما تركب عنها، ثم لا يستطيع أن يفهم من التقسيمات الأصلية شيئا لأنها تتصل في حقيقتها بالمأساة لا بالمديح، وعلى الرغم من هذا فهو غير متردد بأن ما خرج به من استنتاج موافق لرأي المعلم الأول، لأن المعلم الأول يقول أيضا : «والتشبيه والمحاكاة هي مدائح الأشياء التي هي في غاية الفضيلة». ولأجل أن يؤكد قدامة حقيقة أن المبالغة أحسن بكثير عنده من الاقتصار على الأمر الوسط حكى في كتابه ما جرى بين كثير واعتراض عَبْدِ الملك عليه» (12).

ويقول قدامة في كتابه : «نقد الشعر» : «إن كثيرا أنشد عبد الملك بن مروان قوله فيه :

على ابن أبي العاصي دلاص حصينة ... أجاد المسدي سردها وأذالها
يؤود ضعيف القوم حمل قتيرها ... ويستضلع القرم الأشم احتمالها

فقال له عبد الملك : قول الأعشى لقيس بن معدي كرب أحسن من قولك. حيث يقول له :

وإذا تجيء كتيبة ملمومة ... شهباء يخشى الذائدون نهالها
كنت المقدم غير لابس جنة ... بالسيف تضرب معلما أبطالها

فقال : يا أمير المؤمنين، وصفتك بالحزم والعزم، ووصف الأعشى صاحبه بالطيش والخرق، والذي عندي في ذلك أن عبد الملك أصَحُّ نظرا من كثير إلا أن يكون كثير غالط واعتذر بما يعتقد خلافه... لأن الأعشى بالغ في وصف الشجاعة حتى جعل الشجاع شديد الأقدام بغير جنة، لأن الصواب له ولا لغيره. وقول كثير يقصر عن الوصف» (13).

ويرى قدامة أن المصيب من الشعراء من يُجْمِلُ المديح فيكون ذلك بابا من أبوابه حسنا أيضا لبلوغه الإرادة مع خلوه من الاطالة وبعده من الاكثار، ودخوله في باب الاختصار (14). ويمثل على ذلك من أقوال الحطيئة، والشماخ، وأبي السمط مروان بن أبي حفصة.

2 ـ الهجاء :

لقد حَمَل الشاعر العبقري منذ القديم لواء قومه، فدافع عن أحسابهم وأعراضهم، وتناول

خصومهم وأعداءهم، سواء أكانت المعركة بين الأسرة والأسرة، ام العشيرة والعشيرة، أو الأمة والأمة، فكان قوله موضع الذكر والاكبار. وكان قصيده نشيدا يردده الأنصار، معتزين في خذلان الأعداء، فكان من ذلك كله ديوان في الهجاء كبير برع فيه الشعراء، في القول والبلاغة والفصاحة. فعرضوا للانساب والاحساب والأعراض والأخلاق، فصوروها في خيال صادق أو كاذب لا يبالون بما يعترض سبيلهم من سمعة تتحطم، أو كرامة تتهشم أو أرومة تتهدم، أو نسب ينهار أو عرض يفضح، حيث كان الهدف النصر على الخصم ليس غير.

وقد شغل هذا الغرض الشعري الحيوي جوانب هامة وصفحات عديدة في تاريخ النقد العربي قديما وحديثا. وقد تعرض له قدامة بالدرس والتحليل في كتابه... نقد الشعر. إلا أنه لخص القول فيه. وذلك بالرجوع الى باب المديح لأن الهجاء عنده ضد المديح، يقول في ذلك :

«إنه قد سهل السبيل الى معرفة وجه الهجاء وطريقته ما تقدم من قولنا في باب المديح وأسبابه، إذ كان الهجاء ضد المديح، فكلما كثرت أضداد المديح في الشعر كان أهجى له، ثم ننزل الطبقات على مقدار قلة أصناف الأهاجي فيها وكثرتها.

وهكذا نرى أن الهجاء الجيد عند قدامة يقع مواقع الأضداد في المديح أي من أضداد الفضائل التي ذكرها فيه، وهو في هذا يستمد من أرسطو كعادته، في أوائل كتابه «فن الشعر» إذ يقول : «إن الشعراء يصورون الناس أعلى من الواقع أو أدنى منه، فالمادح يرفع ممدوحه فوق واقعه درجات، والهاجي يهبط به دون واقعه درجات، أو بعبارة أخرى يحسن الشعراء ما يصفونه أو يقبحونه» (15).

ويقول قدامة عن «البهيمية» إنها من عمى القوة المميزة كما يقول جالينوس في كتابه في أخلاق النفس. وهذه إشارة أخرى صريحة من قدامة في إطلاعه على الفلسفة اليونانية، ومثل هذه الاشارات نعثر عليها من حين لآخر في كتابه «نقد الشعر». وجالينوس هذا طبيب وفيلسوف يوناني عاش في القرن الثاني الميلادي، ومن الحكماء الذين عني العرب في عصر الترجمة بنقل كتبهم، ومن كتب جالينوس التي نقلت الى العربية كتاب «الأخلاق» وإلى هذا بالذات يشير قدامة مؤكدا إطلاعه عليه. ولم يكن قدامة الوحيد الذي اطلع على هذا الكتاب، بل إن كثيرا من الأدباء والنقاد الذين عاشوا في القرن الثالث الهجري قد استفادوا من هذا الكتاب الذي يتعرض بتفصيل لِكُلّ النظريات الأخلاقية اليونانية. أما قدامة فيقصد بقوله : «عمى القوة المميزة» نقيض الفضيلة الأساسية التي هي العقل، وهو كما نرى مصطلح أخلاقي يوناني. وهذا يعود بنا الى الفضائل التي عددها قدامة في باب المديح، وكلامه في الفضائل مستمد من النظريات الأخلاقية اليونانية التي أصبحت نظريات أخلاقية عند الفلاسفة العرب. وهي أربعة مرتبطة بالقوة النفسية، وهي :

القوة المميزة أو الناطقة، ومركزها الدماغ.

والقوة الشهوية، أو البهيمية ومركزها الكبد.

والقوة السبعية، أو الغضبية ومركزها القلب.

ويقولون إذا كانت حركة النفس الناطقة أو النفس المميزة حركاتها معتدلة وغير خارجة عن ذاتها نتجت عنها فضيلة العقل. وهذه القوة النفسية إذا اعتدلت نشأت عنها الفضائل، ولذا قال قدامة : ... الجهل من عمى القوة المميزة، أما النفس البهيمية إذا اعتدلت نتج عنها الشجاعة، ثم يحدث عنها وعن نسبة بعضها الى بعض فضيلة تتوجها وهي فضيلة العدل، والعدل معناه الاعتدال، ومن هنا بنيت نظرية الفضيلة الأخلاقية اليونانية «وقد أشار «بونيبكر» بأن قدامة كان يأخذ من كتاب «الأخلاق» لجالينوس خاصة ما يتعلق بأخلاق النفس في تحقيقه لكتاب... نقد الشعر».

وقد ربط اليونانيون بين اعتدال القوة النفسية والفضائل الأربع. أما عن غرض الهجاء في حد ذاته عند اليونان «فقد كانت أعيادها شاهدة على سماع مسرحيات التمثيل القديمة، وفيها ألواح من الهجاء : في ذم المرأة الفاجرة، أو الآلهة الغادرة، أو اللص الباغي، أو التاجر البخيل. وقد وصلت إليها بقية من هذا الهجاء تدل على ما ضاع، وتعرض علينا منه صورة تتمثله بشعر «أرخيلوس» وقد كان إماما لهذا الفن» (16).

3 ـ الرثاء

أما عن موضوع الرثاء فله مكان بارز في الشعر اليوناني القديم إذ اشتهر به شعراء مختلفون

مثل «أرخلوكوس» و«سيمونيدس» وقد عرف اليونان القدماء الرثاء وشاع عندهم، ونقله عنهم الرومان بين ما نقلوه من فنون شعرهم، وألوانهم الأدبية العديدة.

وعند قدامة «أليس هناك فرق جوهري بين المرثية والمدحة إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لها لك مثل : كان، وتولى، وقضى نحبه، وما أشبه ذلك، وهذا ليس يزيد في المعنى ولا ينقص منه، لأن تأبين الميت إنما هو بمثل ما كان يمدح به في حياته» (17).

وهذا إن صح في التأبين الذي يجتمع مع المديح في ذكر الفضائل فإنه لا يصح في الندب والعزاء فسيمي التأبين في المراثي، وإنما دفعه إلى ذلك ما رآه عند أرسطو في كتابه «الخطابة» في حديثه في المناظرات عن المدح والذم، فأحس كأنهما جنسان للكلام.

وقدامة يقرر ما يقرره في باب الرثاء، ويضرب لذلك الأمثلة من الشعر العربي القديم. ويفتن قدامة بالمرثية التي تشبه في نسجها الشعري ما رأينا في باب المديح، من حيث اقتضاب المعاني واختصار الألفاظ وغيرها من المقاييس والشروط التي استحسنّها في باب المديح، ويتعرض هنا لكلمة «مليم» وينفي أن تكون تعني حسن الخلق ليؤكد المدح بالصفات النفسية وذلك في قول أوس بن حجر يرثي فضالة بن كلدة الأسدي :

نجيح مليح أخو مأقط نقاب يخبر بالغائب

هذه النظرة لموضوعية من قدامة الى الشعر تضع الشعراء في مجالات ضيقة وتفقدهم حريتهم في مجال التعبير عما يجيش في صدورهم وعما يعانونه من تجارب متنوعة في الحياة، فالمقاييس والقواعد في مثل هذه الأبواب قيود تحد من تحليق الشعراء في عالم من الخواطر والأحاسيس في التعبير «فلو صح ما يقوله قدامة لنضب الشعر في جيل واحد ولاستحال نظما، ولو صح لخاض الشعراء جميعا في كل الأغراض، ولما كان من تعليل ممكن لأن يجيد شاعر كالفرزدق المديح، ويتخلّف تخلّفاً زريا في الرثاء... ولكن التحكم في الشعر العربي بآراء اليونان وفلسفة اليونان هو الذي لا ينبغي ان يكون. فإذا اتخذناها مقياسا في تذوق الادب ونقده فليس لنا إلا أن نتوقع نقدا هزيلا ناحلا» (18).

وحتى اليونان أنفسهم ربما لم يقولوا بما قال به قدامة، ولعل الخطأ في الأصل جاءه عن سوء الترجمة الأولى للكتب اليونانية التي كانت تحدث بلبلة في التفكير أثناء القراءة لها. ومن الشراح وأصحاب التلخيصات من الفلاسفة المسلمين الذين كانوا ولعين بهذا النوع من الثقافة اليونانية قد فهموا من حديث أرسطو فيه عن المديح وتطوره الى المأساة أنه يمثل الرثاء، ومن هنا يقول ابن سينا في تلخيصه له : «طراغوذيا» تراجيدي هو المديح الذي يقصد به إنسان حي أو ميت.

4 ـ الوصف

ويتعرض قدامة في باب نعوت المعاني الى غرض الوصف. والحق أن هذا الغرض الشعري من أبرز الأغراض حتى ليغلبها جميعا ويشملها بردائه. لذلك قال عنه ابن رشيق : «إن الشعر إلا أقله راجع الى باب الوصف» (19) وقد جعلوا الأغراض الأخرى للانسان تصف أخلاقه وطباعه ومزاياه. وخصوا الوصف بمظاهر الطبيعة والحَيَوَانَاتِ، وفسروا الوصف في معاجمهم بأنه الكشف والاظهار.

وقد خص القدماء أبواب الوصف بعنايتهم فعرضوها في مختاراتهم الأدبية وتحدثوا عما فيها من بلاغة وفصاحة. مثل ذلك : تشبيهات ابن أبي عون، وديوان المعاني لابي هلال العسكري، ونهاية الأرب للنويري.

والمشموم والمشروب للسري الرفاء، والتحف والهدايا للخالديين. كل ذلك يضم صورا واضحة عن الحياةِ التي عاشها الشعراء، القدامى.

وقد عقد قدامة فصلا خاصا لهذا الغرض سماه «نعت الوصف» وتحدث عنه كما تحدث عن بقية الأغراض الشعرية الأخرى. إلا أنه قد قَصَّرَ في الحديث عن هذا الباب، في حين نراه يسهب ويفيض في الحديث عن بقية الأغراض الأخرى المرتبطة بالفضائل النفسية، والفلسفة الأخلاقية عند

اليونان. والملاحظ أن أكثر ما مثل به لهذا الغرض بعض الأبيات الشعرية.

ولكن يبدو أن قدامة عند كلامه على نعت الوصف قد تأثر بكلمة المحاكاة اليونانية، من حيث دلالتها على تصوير الشيء المحاكى وتمثيله للحس فهو يقول في تعريفه للوصف : «هو ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات، ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني كان أحسنهم وصفا من أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف مركب منها ثم بأظهرها فيه، وأولاها حتى يحكيه بشعره، ويمثله للحس بنعته» (20).

أرأيت كيف أن قدامة هنا يستعمل كلمة «الحكاية». وهذا دليل على أنه يعرف نظرية المحاكاة التي تحدث عنها أرسطو كثيرا، والتي تفيد معنى التقليد عنه. فالشعر يحاكي الطبيعة، ويحاكي الممدوح، والشعر يمثل للحس ما يدركه الشاعر عن طريق المعرفة. وواجب الشعر وبخاصة في الوصف أن تكون المحاكاة صادقة، وأن يكون التمثيل صادقا مبرزا للمماثلة إبرازا تراه العين وتسمعه الأذن، وعلى هذا الأساس فلا بد أن يكون قدامة قد عرف المحاكاة أولا، وفهم شيئاً عنها ولا بد أن يكون قد قرأ ما كتبه أرسطو من ضرورة أن تكون الأحداث الموصُوفة بارزة للعيان، مرئية أمام السمع. وفي هذا الفصل الذي يصفه أرسطو تحت هذا العنوان : «ضَع الأحداث والوقائع بارزة للعيان» «يستحسن» «هوميروس» في الالبادة ويقول : «إنه في كثير من شعره يهب الحياة الى كائنات جامدة بما يستعمله من المجاز» (21).

إلا أن المرحوم الدكتور طه حسين في مقدمة كتاب «نقد النثر» المنسوب خطأ لقدامة يرى أن قدامة لم يفهم رأي أرسطو في المحاكاة (22).

5 ـ التشبيه :

أما التشبيه «فهو من ألوان التَعبير الممتاز الأنيق، تعمد إليه النفوس بالفطرة حين تسوقها الدواعي إليه. وهو من الصور البيانية التي لا تختص بجنس ولا بلغة. لأنه من الهبات الانسانية والخصائص الفطرية والتراث المشاع بين البشر جميعا. ذلك أن أساس التشبيه هو الصفات المشتركة، أو المتشابهة أوالمتضادة التي يراها الانسان في الأشياء» (23).

ويقول ابن رشيق عنه : «والتشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبها تأكيدا. ولهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحد منهم عنه».

أما قدامة فيعده غرضا من أغراض الشعر، وأنه باب يقصد لذاته. فهو يقول عنه : «إنه من الأمور المعلومة أن الشيء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات. إذ كان الشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه، ولم يقع بينهما تغاير البتة اتحدا فصار الاثنان واحدا، فبقي أن يكون التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما على صاحبه بصفتها. وإذا كان الأمر كذلك فأحسن التشبيه هو ما وقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يدنى بهما الى حال الاتحاد» (24).

وكان الأصح في نظري أن يجعل التشبيه من نعوت المعاني الشعرية، لا غرضا شعريا مستقلا بذاته، وبذلك ينضم التشبيه الى معاني الشعر فينضاف إلى الاستعارة، والتمثيل، وما إلى ذلك.

وأساس التشبيه عند قدامة ـ كما هو واضح في تعريفه له ـ أنه يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما، ويوصفان بها، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفتها.

وقد وفق قدامة كل التوفيق في اختياره الأمثلة المؤيدة لآرائه في هذا الباب.

وفي بيان جَمَال التشبيه في كل منها. ينتزع ذلك من أشعار عدد من الشعراء. كقول أوس بن حجر يشبه ارتفاع الأصوات في الحرب تارة وهمودها وانقطاعها تارة، بصوت التي تجاهد أمر الولادة.

لنـــا صرخـــة ثم استكانـــة كمـــا طرقت بِنفَـــاسِ بِكِـــرْ (25).

ويستحسن قدامة من الشعر الأبيات التي كثرت فيها التشبيهات.

وهذا دليل على هيامه بالصنعة التي سادت أسلوب الأدباء في عصره. وقد عد التشبيه غرضا مستقلا بذاته في الشعر على نحو ما ذكرناه.

ولعل قدامة كان محتديا في ذلك أستاذه أحمد بن يحيى ثعلب الذي سبقه في ذلك، فأقر ذلك في كتابه. قواعد الشعر «أو ربما جاءه ذلك من تأثره بما قرأه في النقد اليوناني. وفي ذلك يقول الدكتور شوقي ضيف : «وإدخاله التشبيه في أغراض الشعر غريب. ولعل هذا جاءه من أن «متى» كان يستعمل في ترجمته كلمة «يشبهون» بدلا من «يحاكون» فقد شبه عليه كما شبه على «متى» فجعلها غرضا من أرغراض الشعر» (26).

ومن جهة أخرى نرى لقدامة نوعا من الدعوة الى التجديد موجهة الى الشعراء، وذلك بأن لا يكتفوا في تشبيهاتهم بما جاء عن القدماء فقط، ولكن للشاعر الحرية في أن يأتي «في تشبيهه بغير الطريق التي أخذ منها عامة الشعراء».

وإذا كان الشعراء قد اعتادوا تشبيه شيء بشيء فللشاعر الحرية بأن يأتي في تشبيهه من جهة أخرى، ما دمنا نراعي كون النموذج الذي نقلده ذا قيمة ومقدرة، وهذا لا يتوفر في باب التشبيه إلا إذا كان المشبه به مثلا ـ وهو النموذج ـ يجب أن يكون أعلى من المشبه، وليصل قُدَامة الى ذلك يحبذ في التشبيه تقارب الطرفين، وتزاحم التشبيهات، وحرية التصرف فيه.

وذلك مثل قول امريء القيس :

له أيطلا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل (27)

وهكذا رأينا قدامة يذكر الاعلام من أغراض الشُعَرَاءِ فيحصرها في ستة وهي : المدح، والهجاء، والرثاء، والوصف، والتشبيه، والنسيب.

وهي في الحقيقة تعود كلها الى غرض المدح والهجاء. وحتى في تعليقه على هذه الأغراض يؤكد على هذين البابين فيقول : «قد أتينا من ذكر نعوت الأغراض التي تنتجها الشعراء من المعاني، وهي : المدح، والهجاء وغيرها (28).

أما ما يعم جميع المعاني الشعرية فيبدأها بصحة التقسيم، ويقول عن ذلك : «هي أن يبتدىء الشاعر فيصنع أقساماً فيستوفيها، ولا يغادر قسما منها (29). ويستشهد لذلك بقول نصيب في الاتيان على جواب المجيب على الاستخبار :

فقال فريق القوم : لا، وفريقهم نعم، وفريق قال : ويحك ما ندري

فليس في أقسام الاجابة عن مطلوب ـ إذا سئل عنه ـ غير هذه الأقسام. وكذلك الحال في قول الشماخ يصف صلابة سنابك الحمار، وشدة رَفْضِهِ الأرض :

متى ما تقع أرساغه مطمئنة على حجر يرفض أو يتدحرج

فليس في أمر الوطء الشديد إلا أن يوجد الذي يوطأ عليه رخوا، فيرفض، أو صلبا فيدفع.

وكذلك قول الأسعر بن حمران الجعفي يصف فرسا على هيئته مِنْ جميع جهاته :

إما إذا استقبلته فكأنه باز يكفكف أن يطير وقد رأى
أما إذا استدبرته فتسوقه ساق قموص الوقع عارية النسا
أما إذا استعرضته متمطرا فتقول هذا مثل سرحان الغضا

فلم يدع هذا الشاعر قسما من أقسام النصبة التي يرى الفرس عليها إلّا أتى به.

وقد يجوز أن يظن ظان في قولنا : «إن هذا الشاعر قد أتى بجميع الأقسام». ليس يَحِقُّ أنه إذا كان الفرس أحد الأجسام، وكل جسم فله ست جهات، فإذا ذكرت حال أربع منها بقيت جهتان لم تذكرا، وحل هذا الشك إن وقع من احد هو أن هذا الشاعر إنما وصف فرسا لا جسما مطلقا، وللفرس أحوال يمتنع بها من أن ينتصب كل نصبة، ومع ذلك فإن هذا الشاعر إنما وصف الجهات التي يراها الانسان من الفرس إذا كان على بسيط الأرض، وكان الرجل قائما أو قاعدا، إذ كانت هذه الحال هي التي يرى الانسان عليها الخيل في أكثر الأمر. فأما مثل أن يكون الانسان في علية فيرى من الفرس متنه، فقط، أو أن يكون نائما فيرى بطنه فقط فما أبعد ما يقع ذلك، ولم يقصده الشاعر ولا لِهِ وجه فِي أن يقصده

إذ كان ليس فيما يعرف ويعهد من النظر الى الخيل إلا ما ذكره هو أن تستقبل أو تستدبر مِنْ أحد الجانبين.

ثم يستشهد على صحة التقسيم في الشعر ببَيتٍ شعري آخر لابي زبيد الطائي،

يا أسم صبرا على ما كان من حدث إن الحـــوادث ملقـــي ومنتظـــر

ثم يعلق قدامة على هذا البيت قائلا : «فليس في الحوادث إلا أن تكون قد لقيت أو ينتظر لقيها (30). وهذا دليل على العقلية الفلسفية، والنظرة المنطقية القياسية، وسيطرتها على عقلية قدامة التي تريد أن تتحكم في الفن الشعري الى هذا الحَدِّ مِنَ التَقسِيمِ. والواقع أن هذا المذهب النقدي له ما يشبهه في كتب البلاغة التي عرفوها بأنها «تصحيح الأقسام واختيار الكلام». وهذا القول نقل عن الحكماء اليونان. وربما أن قدامة قد أخطأ الفهم لما قاله أرسطو في هذا الشأن. ذلك أن أرسطو يفرق بين الدليل المنطقي والدليل الخطابي، فالأول يقيني والآخر ظني، ومثل الدليل الخطابي الشعر الذي يعتمد هو الآخر على المظنونات والمخيلات، وعلى المغالطات لا على الحقائق المقطوع بصحتها.

وهكذا نرى أن أرسطو يقف أمام الشعر في نظراته النقدية مواقف دفاعية عن الشعراء اليونان إذا ماوقعوا في مثل هذه الاخطاء. أما قدامة فإنه يقف ـ مثل كثير من النقاد القدماء ـ مواقف منكرة على شعراء العرب ما أجازه المعلم الأول.

«فقدامة يريد للأدب ما لم يرده صاحِبُ المنطق نفسه، إنه يريد الاستقراء التام، وصاحب المنطق يكتفي بالاستقراء ولو كان ناقصا... فالاستقراء التام منطق، والاستقراء الناقص أدب، والفرق بينهما هو الفرق بين القياس التام والقياس المضمر» (31).

أما في الابيات التي استشهد بها في وصف الفرس للأسعر بن حمران الجعفي، فالتأثير في التعليق عليها بأفكار أرسطو واضحة. فهو يقرر ضرورة أن الاستقراء يجب أن يراعي فيه طبيعة الأشياء حسب الشكل المنظور لِلفَرَسِ فيكتفي في وصفه بالجهات الاربع الظاهرة أمم البصر. بينما يبتعد عن القسمة المنطقية التي تجعل لكل جسم ست جهات مفرقا في ذلك بين جسم الفرس الحي، وبين الأجسام الجامدة. وأن قدامة يخالف أرسطو في أنّ الخطأ في الرسم من حيث الصحة في الواقع لايقدح في الفنية، لأن قدامة يريدها صحة مطلقة، ويدافع عن الاعتراض الموهوم على الشاعر الذي لمْ يُخالِف الاستقراء المنظور، ولم يخالف الصحة الواقعية فيما يكون عليه الجِسمُ الحي لا الجسم مطلقا» (32).

وبهذا نستطيع أن نؤكد في اطمئنان على أن قدامة قد عرف عن أرسطو الشيء الكثير في هذا الباب. فعنده أن الشاعر إذا حاول أن يقلد شيئا فاستحال عليه تقليده، فإن الخطأ في هذه الحال يعود على الشاعر نفسه لا على الشعر، وكذلك إذا أساء الاختيار والتصرف، أو عرض فَرَساً جامحا مثلا ضاربا بساقيه اليمنيين الى الأعلى دفعة واحدة، فليس في ذلك كله خطأ ينسب الى الشعر نفسه.

لن قدامة وهو يكتب هذا المثال كأنه كان يتذكر فرس أرسطو الذي رآه مرسوما وساقاه اليمنيان الى الأعلى، وقبل ذلك فنيا. وهكذا نرى أن أرسطو يفرق بين صحة الفنية وصحة الرسم في الواقع ويكفيه أن يتوقف الشاعر أو الرسام في الناحية الفنية فقط.

ويرجع شكري عياد ان مخالفة قدامة لارسطو ترجع الي أمرين : إما أن يكون قدامة قد أخطأ الفهم فيما قرره أرسطو، وإما أن يكون قد فهم (وهذا هو المرَجَّحُ) ثم تصرف في هذا المفهم تصرفا ينطبق على ما هو أمامه من شواهد الأدب العربي، وكيفما كان الأمر فالانتفاع محقق.

ثم لن قدامة يعقد بابا آخر لفساد التقسيم ومجمل هذا الفساد

أ ـ التكرير ـ ب ـ دخول أحد القسمين في الآخر.

ج ـ أن يكون القسمان مما يجوز دخول أحدهما في الآخر.

د ـ أن يترك بعض الأقسام مما لا يحتمل الواجب تركه.

(يتبع)

امحمد العلمي

المراجع

(1) أنظر ما كتبناه عن ذلك، في العدد الأول من هذه المجلة ص 175 وما بعدها
(2) نقد الشعر ص 68 تحقيق كمال مصطفى
(3) خطابة أرسطو ص 168 ترجمة ابراهيم سلامة
(4) نقد الشعر ص : 69، 70
(5) نفسه ص : 71
(6) خطابه أرسطو ص : 168
(7) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني ص : 126
(8) قدامة بن جعفر والنقد الأدبي ص : 340.
(9) نفسه ص : 347 ـ 348.
(10) انظر العدد الأول من هذه المجلة ص. 177 وما بعدها.
(11) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص : 198.
(12) نفسه.
(13) نقد الشعر ص : 73 ـ 74.
(14) نفسه ص : 84.
(15) البلاغة تطور وتاريخ ص : 82
(16) قصة الأدب في العالم ص : 167.
(17) نقد الشعر ص : 111.
(18) قدامة بن جعفر والنقد الأدبي ص : 363.
(19) كتاب العمدة لابن رشيق ج 2 ص : 294.
(20) نقد الشعر ص 134.
(21) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان 208.
(22) نقد النثر ص 43.
(23) فن التشبيه ص 43.
(24) نقد الشعر ص 722.
(25) نفسه.
(26) البلاغة تطور وتاريخ ص 83.
(27) نقد الشعر ص 126.
(28) نفسه ص 148 ـ 149.
(29) نفسه ص 149.
(30) نفسه ص 152.
(31) أرسطو طاليس في الشعر لشكري عياد ص : 211.
(32) نفسه ص 212.

مفهوم الرتبة بين القديم والحديث

عبد العزيز العماري
كلية الآداب
مكناس

ارتأيت أن أخصص هذه المقالة لتحديد المصطلحات التي ترتبط ارتباطا وثيقا بمصطلح «الرتبة». وقد كان النحاة والبلاغيون العرب القدماء يستعملون، في هذا المجال، مصطلحات مختلفة تحتاج الى تحديد. واللسانيات الغربية الحديثة تستعمل كذلك مصطلحات تتعلق ب «بالرتبة»، فارتأيت أن أقدم بعضا منها.

1 ـ جذور مصطلح «الرتبة» في الثقافة الاسلامية :

لم يكن مفهوم «الرتبة» من اختراع النحاة العرب، فقد أخذوه، في الحقيقة، من الثقافة العربية الاسلامية، فالمجتمع العربي الاسلامي كان يحتضن السيد والخادم، والقائد والجندي... الخ، ومن ثم كان لكل فرد (أو مجموعة من الأفراد) رتبة أو مرتبة. وفي «كشاف الاصطلاحات» للتهانوي، تعريفات تدل على مدى ارتباط المصطلحات : «الرتبة ـ الترتيب ـ المرتبة ـ التقديم ـ التأخير» بالثقافة العربية الاسلامية، قبل أن يتبناها النحاة والبلاغيون العرب القدماء.

يقول صاحب «الكشاف» (1) : «الترتيب إما عقلي كما في الأجناس المترتبة على سبيل التصاعد والأنواع الاضافية المترتبة على سبيل التنازل...، وإما وصفي، وهو أن يمكن وقوع المتقدم في مرتبة المتاخر، كما في صفوف المسجد، ويختلف ذلك التقدم الرتبي بسبب اختلاف المبدأ، فقد تبتدىء أنت من المحراب فيكون الصف الأول متقدما على الصف الأخير، وقد تبتدىء من الباب فينعكس الحال».

ويفرق التهانوي في «الكشاف» بين عدة مستويات للتقدم :

أ ـ التقدم بالحقيقة :

يقول التهانوي : «التقدم بالحقيقة كالتقدم بالزمان، وهو كون المتقدم في الزمان لايكون المتأخر، كمتقدم موسى على عيسى...، فالتقدم هنا صفة للزمان» (2).

ب ـ التقدم بالشرف :

يقول : «وهو أن يكون للسابق زيادة كمال عن المسبوق كتقدم أبي بكر عن عمر رضي الله عنهما، ولا شك أن زيادة الكمال هو سبب للتقدم في المجالس» (2)

ج ـ التقدم بالرتبة :

يقول : «بأن يكون المتقدم أقرب الى مبدأ معين، وسماه البعض بالتقدم بالمكان» (2).

د ـ التقدم بالطبع :

يقول : «وهو أن يكون المتقدم محتاجا الى المتأخر، ولا يكون علة تامة له، كتقدم الواحد على الاثنين» (2).

واضح، إذن من خلال هذه المقتطفات، أن كلا من المصطلحات : «ترتيب ـ رتبة ـ مرتبة تقدم...» مرتبط في معناه بالمعنى الفلسفي.

ولعل النص الذي سأسوقه، وهو للانبارى، دليل أوضح على ما لهذه المصطلحات من علاقة حميمة بالمعاملات المجتمعية، قبل ان تلج ميدان النحو. يقول الانبارى في «الانصاف» : «.... إذ لو قلنا إنه يقع حيث لا يقع العامل، لقدمنا التابع على المتبوع، ومثال ذلك : أن يحل الغلام حيث يجلس السيد، فتجعل مرتبته فوق مرتبة السيد، وذلك عدول عن الحكمة» (3).

2 ـ المصطلحات العربية :

استعمل النحاة العرب القدماء مصطلحات لها صلة وثيقة بمفهوم الرتبة. ونذكر منها : المرتبة ـ الترتيب ـ التقديم ـ التأخير التوسط ـ الموقع ـ المركز، بالاضافة الى ما يمكن أن يشتق منها، نحو : تقدم ـ تأخر ـ مقدم ـ مؤخر... وليس في نيتي في هذه المقالة أن أقوم بإحصاء شامل لمواضع ورود هذه المصطلحات في الكتب النحوية، لأن ذلك يحتاج الى بحث خاص وطويل، لكني سأحاول، فقط أن أقف على ما بينها من روابط وفروق.

وفي غيبة معجم لغوي متخصص لابد، لتحديد هذه المصطلحات، من القراءة تحت السطور، ذلك أن النحاة كانوا يستعملونها دون تحديد دقيق، ولا يتم هذا التحديد، إذن، إلا بالرجوع الى النصوص التي ترد فيها هذه المصطلحات.

2. 1 : الرتبة والمرتبة والترتيب :

بين هذه المصطلحات الثلاثة علاقات على مستويين :

ـ المستوى الأول : إن لها نفس الاشتقاق.

ـ المستوى الثاني : إنها تتميز بالقرابة الدلالية.

ومع ذلك، فالفرق دقيق بين الرتبة والمرتبة من جهة والترتيب من جهة أخرى، لذلك سأتناول كل مصطلح على حدة.

1.1.2 : الرتبة

استعمل هذا المصطلح أغلب النحاة، و لاسيما المتأخرين منهم كابن هشام وابن مالك وابن عقيل والانبارى والأشموني والصبان، بالاضافة الى المعاصرين من النحاة.

يقول الانبارى في «الانصاف» : «والمفعول لابد أن يتقدمه عامله لفظا أو تقديرا، فلا يصح له رتبة الابتداء» (4). ويقول في موضع آخر : لاخلاف أن رتبة الاسم بعد ظاهره» (5). ويقول المحشي على شرح ابن عقيل : «على انك تعلم أن رتبة الخبر التقدم» (6).

ويقول ابن عقيل : «فلا تقول : صاحبها في الدار، ليلا يعود الضمير على متأخر لفظا ورتبة» (7).

ويقول الأشموني عن وجوب تأخير المفعول في حالة اللبس بسبب خفاء الإعراب وعدم القرينة : «... إذ لا يعلم الفاعل من المفعول... إلا بالرتبة...» (8). ويقول الصبان عن مسألة جواز تقديم معمول خبر (كان) وهو ظرف : «لا يلزم من تجويز انتقال الضعيف عن رتبته انتقال القوى عن رتبته» (9).

يمكن أن نلاحظ من خلال هذه النصوص أن مفهوم «الرتبة» استعمل في نفس المعنى الفلسفي والاجتماعي، كما يمكن أن نلاحظ أن النحاة أعطوا لكل عنصر من عناصر الجملة رتبة يحتفظ بها لفظا أو تقديرا. ويمكن أن نلاحظ، أيضا في كتب النحو القديمة، أن النحاة كثيرا ما كانوا يربطون

مفهوم الرتبة بمفهوم آخر وهو مفهوم «الاصل» وهكذا نجد بعض النحاة يستعملون العبارة التالية : «الاصل في كذا أن يكون كذا» وذلك واضح في الفية بين مالك، مثلا. يقول :

والأصل في الفـــاعل أن يتصلا والأصل في المفعول أن ينفصلا

ويقول في موضع آخر :

والأصل في الأخبار أن تؤخـــر وجـــوزوا التقديـــم إذ لا ضرر

2.1.2 : المرتبة :

لن أقف طويلا عند هذا المصطلح، ذلك لأنه يعتبر، الى حد ما، مرادفا لمصطلح الرتبة، خصوصا إذا نظرنا إليهما من زاوية فلسفية. ولا بد من الاشارة، أيضا الى أنه ليس شائعا بنفس درجة شيوع مصطلح رتبة. وقد أفرد السيوطي بابا من كتابه «الاشباه والنظائر» عنونه كالتالي : «باب القول في الاسم والحرف أيهما أسبق في المرتبة والتقدم». وقد عاملهما وكأنهما كائنان اجتماعيان (10).

استعمل النحاة والبلاغيون المتأخرون هذا المصطلح، فقد استعمله ابن مالك في الفيته، والأشموني في شرحه لها والصبان في حاشيته على شرح الأشموني، كما استعمله مختلف البلاغيين، وأخص بالذكر عبد القاهر الجرجاني في «دلائل الاعجاز» وشراح التلخيص. وأورد نصوصا مختلفة ورد فيها هذا المصطلح، حتى يسهل إدراك دلالته.

يقول ابن مالك في باب الحروف المشبهة بليس :

إعمال. «ليس» أعملت «ما» دون (أن) مع بقا النفي وترتيب زكـــن

ويقول في الترتيب بين اسم (إن) وأخواتها وبين خبرها : «وراع ذا الترتيب». وتبنى الشراح هذا المصطلح فاستعملوه (انظر ابن عقيل والأشموني والصبان).

ولعله من المفيد أن نقتبس من «دلائل الاعجاز» بعض ما قاله عبد القاهر الجرجاني : «النظم ليس شيئا غير توخي معاني النحو فيما بين الكلم، وأنت ترتب المعاني أولا في نفسك، ثم تحذو على ترتيبها الألفاظ في نطقك» (11). وليس هذا هو الموضع الوحيد الذي تحدث فيه الجرجاني عن مفهوم الترتيب، وإنما أميل الى الاختصار.

والترتيب في آخر المطاف هو توزيع الرتب بين عناصر الجملة، الأول فالثاني فالثالث. وفق شروط يفرضها اللسان.

4.1.2 : المركز :

يمكن اعتبار مصطلح «مركز» مرادفا للرتبة والمرتبة، إلا أن الملاحظ هو أنه قليل الاستعمال في النحو، ولم أعثر عليه إلا في «شرح كافية ابن الحاجب» وقد استعملها شارحها الرضي الاستراباذى بمعنى «موقع» أو «موضع» ولكنه يقصد الموقع الأصلي. يقول الرضي في مسألة وجوب تقديم الفاعل على المفعول في حالة غياب القرينة المميزة بينهما : «فيلزم كل واحد مركزه ليعرفا بالمكان الاصلي...» (12). ويقول في نفس السياق : «... فإذا لزم كل واحد مركزه لم يلتبس...» (13). إلا أن هذا الاستعمال لم يمنعه من استعمال مفهوم «مرتبة» يقول : «مرتبة المفسر قبل الضمير» (14).

5.1.2 : الموضع والموقع

في اعتقادي أن المصطلحين «موضع» و«موقع» مترادفان، والفرق البسيط بينهما يتمثل في كون «الموضع» أقدم، على المستوى التاريخي، من «الموقع».

يقول صاحب «الانصاف» : «ألا ترى أنه لا يجوز : ضرب غلامه زيدا، إذا جعلت (غلامه) فاعلا، و(زيدا) مفعولا، لأن التقدير إنما يخالف اللفظ إذا عدل بالشيء عن الموضع الذي يستحقه، فإما إذا وقع في الموضع الذي يستحقه، فمحال أن يقال أن النية به غير ذلك» (15). أما «الموقع» فيكثر استعماله

عند النحاة المحدثين. ومن المحدثين الذين شاع عندهم استعمال المصطلحين عبد الرحمان أيوب في كتابه «دراسات نقدية في النحو العربي». يقول عن المثال : ضرب زيد عليا : «توجد ثلاثة مواقع إعرابية هي : موقع الفعل المسند وموقع الفاعل المسند اليه وموقع المفعول...» (16). ويقول عن «الموضع» : يأخذ المبتدأ الموضع الأول في الجملة الاسمية ويأخذ الخبر الموضع الثاني» (17).

6.1.2 : التقديم والتأخير

هذان المصطلحان يكثر استعمالهما في كتب النحو والبلاغة، وبالرغم من هذا الشيوع فإنهما يحتاجان الى تحديد، ذلك أن التقديم لا يكون إلا بالنسبة لعنصر (أو أكثر من عنصر) في الجملة لم يتحرك من موقعه، وكذلك الشأن بالتأخير.

والتقديم والتاخير عند النحاة العرب القدماء مرتبطان، فحينما يذكرون المفعول المقدم، يذكرون الفاعل المؤخر، وهذا غير صحيح على المستوى الصورى :

الفعل	الفاعل	المفعول
1	2	3

- رسم 1 -

فإذا نقل المفعول الى ما قبل 1، فإن الفاعل يبقى في موقعه، لأنه لا توجد عملية تنقله الى موقع آخر. أما إذا نقل المفعول إلى ما قبل 2، فإن الأمر حينئذ يتعلق بتبادل المواقع بين الفاعل والمفعول. وإذا تأملنا ما يقوله الاشمونى فى باب الفاعل، اتضح لنا ان التقديم والتاخير عند النحاة نسبي. يقول الأشموني : «وجوب تأخيره عن رافعه» (18). فلو أخذنا كلامه على ظاهره، فهمنا منه شيئين :

1 ـ إن الفاعل يجب أن يأخذ موقعه الى يسار 1

2 ـ هذا يحتمل إمكان أن يأخذ موقعه في 2 أو بعده، معنى هذا أن مع وجوب التأخير يحتمل جواز أن يأخذ موقعه في 2 أو بعد 3. ويقول أيضا متحدثا عن موقع الفاعل : «يجب أن يكون الفاعل بعد الفعل» (19). وهذا أيضا له نفس الاحتمال السابق، ذلك أن قوله «بعد الفعل» قد يعني الموقع 2 أو بعد الموقع 3 :

فعل	فاعل	مفعول
1	2	3

- رسم 2 -

ويتضح ارتباط التقديم بالتأخير في قول سيبويه : «وإن شئت، قلت : كان أخاك عبد الله فقدمت وأخرت...» (20). فهو يرى أن في تقديم «أخاك» تأخير لـ «عبد الله» أي أنك إذا قدمت عنصرا فإنك تؤخر آخر. وما قاله سيبويه ينطبق عليه الرسم التالي :

1	2	3

- رسم 3 -

حيث يصبح ترتيب الأرقام كالتالي : 1. 3. 2

وينظر الجرجاني الى التقديم والتأخير من زاوية تداولية (Pragmatique)، وقد سبقه الى ذلك سيبويه (21).

7.1.2 : التوسط :

خصصت لمصطلح (التوسط) حديثا منفردا، لأنه هو أيضا يطرح مشكلا، فهذا المصطلح قليل الاستعمال، وإذا ما قورن بالمصطلحين السابقين فإننا نجده يتضمنهما، بالاضافة الى استعماله الملبس

أحيانا. يقول ابن مالك عن توسط خبر كان وأخواتها : «وفي جميعها توسط الخبر أجز»
ولما لاحظ الأشموني أن هذه القولة غامضة شرحها فأضاف : «بينها وبين الاسم» (22). بالاضافة الى ذلك، فإنه لا يجوز الحديث عن التوسط إلا إذا كانت الجملة متضمنة ثلاثة عناصر فقط : 3.2.1 حيث يمكن أن يتوسط مثلا 3 بين 1 و2، فتصير الجملة : 2.3.1. فإن تعدت الجملة ثلاثة عناصر تعددت إمكانات التوسط، ووجب أن يعين بالضبط العنصر المتوسط والعنصران المتوسط بينهما عنصر ثالث.

3 ـ المصطلحات الغربية :

تعرف اللسانيات الغربية الحديثة سيلا من المصطلحات التي ترتبط من بعيد أو من قريب بفكرة الرتبة أو الترتيب، وقد تعددت المصطلحات بسبب تعدد الاتجاهات اللسانية وسأحاول أن أعرض بعضا منها.

1.3 Ordre = ترتيب :

ورد في «معجم اللسانيات» (23) ما يلي : «في السلسلة الكلامية، وفي تمثيلها الخطي (Linéaire) الكتابي، تظهر الكلمات الواحدة تلو الاخرى : إنها تتقدم في ترتيب معين...» (24).

2.3 : Place = رتبة ـ موقع :

هذا هو المصطلح الذي يتفق مع المصطلح العربي «الرتبة». ولا زال النحو الفرنسي يحتفظ بهذا المصطلح، حيث يمكن أن تقرأ في أي كتاب للنحو الفرنسي : رتبة الفاعل ـ رتبة المفعول... الخ. إلا أن هذا المصطلح يتفق أيضا مع المصطلحين «موقع» و«موضع» العربيين. ولعل ذلك راجع الى أن الرتبة بمفهومها العربي غير واردة في الفرنسية التي لا تعتبر أن عنصرا أقوى من عنصر آخر في الجملة.

3.3 : Permutation = تبادل المواقع :

ورد في «معجم اللسانيات» أن التبادل عملية بمقتضاها يغير ترتيب عناصر متجاورة في بنية لغوية...، ويقوم تحويل التبادل (Transformation de permutation) بعملية تبديل المواقع بين مكونات الجملة، دون تغيير المعنى، وفق شروط معينة...، وتخضع عملية تبديل المواقع، في الغالب، لتحويلات مسبقة...» (25). نلاحظ أن هذا المصطلح يتضمن ما يسمى في العربية التقديم والتأخير.

4.3 Déplacement = النقل ـ الانتقال :

ورد في «معجم اللسانيات» أن «النحو التوليدي يعتبر النقل عملية تقضي بتغيير الترتيب بين مكونين متجاورين في الجملة... وذلك طبق شروط يحددها تحويل معين...» (26). واضح ما للمصطلحين «تبادل» و«نقل» من تقارب في الوظيفة.

5.3 : Topicalisation = تقديم ابتداء

ورد في «معجم اللسانيات» أن التقديم (= ابتداء = Topicalisation) عملية لغوية تقضي بجعل عنصر من الجملة «مبتدأ» (= مقدما = Topique) يكون باقي الجملة خبرا له» (27).
لقد تعمدت وضع «الابتداء» و«التقديم» بين هلالين لاشعر بأن المقصود ليس هو المعنى العربي التقليدي. والواقع أن Topicalisation، تقديم وابتداء، ولكنه تقديم خارجي، ففي المثال : «زيد ضربته» يكون تقديم (زيد) تقديما خارجيا لأنه وقع خارج المسند والمسند إليه : ضربته، كذلك في : زيد قام، حيث إن (زيد) قدم، فأصبح مبتدأ (Topique) وهو أيضا تقديم خارجي إذا ما احتفظنا بالمفهوم العربي التقليدي، حيث وقع «زيد» خارج جملة «قام (هو)».

عبد العزيز العماري

الهوامش

(1) محمد علي بن علي التهاوني ـ كشاف اصطلاحات الفنون ـ ج 2 ـ 1862 م ـ ص 1213
(2) نفسه ـ ص 1213
(3) الانباري ـ الأنصاف في مسائل الخلاف ـ ص 68 ـ المسألة 9 ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ ج 1 ـ نشر مطبعة السعادة ـ ط 4
(4) نفسه ـ ص 50 ـ ج 1
(5) نفسه ـ ص 65 ـ ج 1
(6) محمد محيي الدين عبد الحميد ـ حاشية على شرح ابن عقيل ـ ص 242 ـ ج 1
(7) ابن عقيل ـ شرحه للالفية ـ تحقيق محي الدين عبد الحميد ـ ص 239 ـ ج 1 لم تذكر سنة الطبع
(8) أبو الحسن علي الأشموني ـ شرح الألفية ـ ص 52 ـ ج 2 ـ دار الفكر ـ بيروت. بدون سنة
(9) الصبان (محمد علي) حاشية على شرح الأشموني ـ ص 246 ـ ج 1 ـ دار الفكر. بدون سنة
(10) السيوطي (جلال الدين) الأشباه والنظائر ـ ص 53 ـ ج 1 ـ ط 2 ـ 1309هـ مطبعة دائرةالمعارف العثمانية
(11) الجرجاني (عبد القاهر) دلائل الأعجاز ـ ص 349 ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ 1978
(12) الرضي الاستراباذي ـ شرح الكافية في النحو لابن الحاجب ـ ص 72 ج 1. دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط 2 ـ 1979
(13) نفسه ـ ص 84 ـ ج 1
(14) نفسه ـ ص 129 ـ ج 1
(15) الانبارى ـ الانصاف ـ ص 65 ـ المسالة 9
(16) عبد الرحمان أيوب ـ دراسات نقدية في النحو العربي ـ ص 37 ـ نشر مكتبة الأنجلو المصرية ـ 1957
(17) نفسه ـ ص 141
(18) الأشموني ـ شرح الألفية ـ ص 42 ـ ج 2
(19) نفسه ـ ص 42 ـ ج 2
(20) سيبويه ـ الكتاب ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ ص 45 ـ ج 1 ـ عالم الكتب بيروت
(21) الجراجاني ـ الدلائل ـ ص 83 ـ 84 ـ وسيبويه ـ الكتاب ـ ص 34 ـ ج 1
(22) الأشموني ـ شرح الألفية ـ ص 243 ـ ج 1
(23) 1982 — Larousse - Dictionnaire de Linguistique
(24) نفسه ـ ص 349
(25) نفسه ـ ص 368
(26) نفسه ـ ص 141
(27) نفسه ـ ص 489.

مكناس : ايديولوجيا المؤسسات في مرحلة الحماية

عبد الرحمان بن زيدان
كلية الآداب
مكناس

كيف نربط ما بين الايديولوجيا والمؤسسات في مرحلة الحماية ؟
وكيف نتحدث عن الحركة الوطنية في مكناس، باعتبار أن هذه المرحلة، كانت حبلى بالصراع بين نمطين حضاريين متباينين، الأول دخيل، والثاني أصيل ؟
هذان السؤالان هما محور الاجابة والتحليل في هذا الموضوع الذي يتعلق بمدينة رسمت وجودها بصيغ مختلفة فاخذت شكلها من كل لحظة واحداث ووقائع كانت تملي قوانينها على السير التاريخي لمكناس كجزء من كل، أي المغرب في فترة الحماية (1912 ـ 1956). هذا السير الذي اتخذ صفات تتراوح بين مواقف الصمود والمقاومة والتصدي للغزو الخارجي، وبين بناء الذات الوطنية لجعلها في مستوى المواقف التي تواجه الاستعمار في كل تجلياته وتمظهراته.

وعلى اعتبار أن الثقافة تدخل في دائرة الصراع، وتنخرط في إشكالية المثاقفة، ونتائجها الايجابية والسلبية، وتتاثر بالخفي والجلي، المتستر والمعلن في هذه العملية فإن تناول المسألة الثقافية في مكناس يبقى محفوفا بمجموعة من المخاطر على مستوى الرؤية والمنهج، سيما وأن هذه الفترة تطرح إشكالا منهجيا يتمثل في :

1 ـ غياب الوثائق الكافية في هذا المجال سيما المتعلقة بالثقافة الوطنية ونشاطاتها.

2 ـ إن التأرخة لكل الأنشطة الثقافية التي كانت في هذه الفترة تركز على ما هو استعماري من خلال بعض الجرائد التي كانت تتابع ما ينجز ويتحقق من برامج لهذا تبقى الوثيقة الشفوية ـ هي الموجودة ـ لكن التعامل معها يجب أن يبقى محاطا بالحذر حتى لا تغيب الموضوعية في تناول هذا الموضوع لتصبح الذاتية طاغية في عملية تتبع مكونات هذه الفترة.

إنها العراقيل التي لا تتعلق بمجال التاريخ الأدبي، ولكن ذلك ينسحب على بعض الذين يهتمون بالتأريخ لمدينة مكناس حيث يصطدمون بـ «الوثائق» التي كتبها الآخر الغرب. هذا الغرب الذي كان ينظر بعينه وايديولوجيته ومخططاته الى واقعنا، والى تاريخنا، ويكتب من خلال رؤيته الخاصة، وليس من خلال المعطيات الموضوعية. والتناول العلمي الرصين. إنه الواقع الذي يترجم لون الصراع، وشكله، وعمقه، ووظيفته، وخلفياته، على اعتبار أن هذه الكتابة غير بريئة، لأنها تشتغل على موضوع ذي وشائج خفية تندرج في الصراع الحضاري العام، وفي المعادلة التي تضع الآخر % الغرب مقابل الأنا العرب. وهذا ما تجلى بوضوح في شكل المدن المغربية حيث انعكست هذه المعادلة عن جغرافيتها وتقسيمها : المدينة الجديدة مقابل المدينة العتيقة أو القديمة. وطبعا كانت

مكناس من المدن التي خضعت لهذا الشرخ في جسدها، فانكوت بنار الاستعمار الفرنسي وبمخططاته، لأنها مدينة لها موقعها الاستراتيجي الهام، والموقع الفلاحي الغني، والمكانة العسكرية، مما جعلها تتبوأ المكانة الأولى في اهتمام الحماية الفرنسية التي كانت ترمي الى :

أولا : القضاء على جميع الحركات الثورية فيها.

ثانيا : تسهيل مامورية التدخل العسكري والسطو على الأراضي الفلاحية ونزعها من أصحابها الحقيقيين عنوة.

ثالثا : تكميل هذين المخططين بها هو خطير وفعال، والمتمثل في المرحلة «الثقافية» والتأسيس للنموذج الغربي الذي يجب أن يشع «نوره» في مكناس وفي جميع مناطق المغرب.

إن التخطيط بدأ سياسيا، وتلاه ماهو اقتصادي، ليصل الى ماهو أخطر «الثقافي» لأنه يرمي الى استبدال ثقافة بأخرى، وهوية بغيرها، واستنبات نيليين للفكر المهيمن الذين يقبل النموذج المستورد، ويمحي ماهو أصيل ووطني وخاص، هذا المخطط الذي يروج له في هذه الفترة (12 ـ 56) كان يلمع دور الرجل «الأبيض» في تمدين المستعمرات، وإخراجها من قوقعتها، وظلماتها، وديجورها الى النور، والى التحضر والتمدن، ونقلها من التخلف، لالحاقها بالنموذج الأوربي. لكن هذا ـ في كنهه ـ يتناقض ـ تناقضا صارخا ـ مع مجموعة من المبادىء التي أنبنت عليها الايديولوجية الاستعمارية، وهي ايديولوجية عنصرية تقوم على التفريق ضربا للوحدة والتكتل، ترمي الى التشتيت، وتكرس الشعث والتباعد.

ويمكن أن نتلمس هذا ـ وعلى سبيل المثال لا الحصر ـ من خلال المبادىء التي وجهت السياسة الاستعمارية في مجال التعليم ـ هذه المبادىء التي وجدنا لها بعض الوثائق والشهادات التي تكتشف عن نوايا أصحابها، وهنا أذكر بالمناسبة الخطاب الذي ألقاه مدير التعليم بالمغرب M^r HARDY أمام جماعة من المراقبين المدنيين أجتمعوا بمدينة مكناس سنة 1920 في دورة من الدورات التكوينية التي كانت تنظمها لهم سلطات الحماية لتزويدهم بالتوجيهات اللازمة وإرشادهم الى طريقة العمل في المناطق التي كلفوا بالسيطرة عليها. يقول : «منذ سنة 1912 دخل المغرب في حماية فرنسا، ولقد أصبح في الواقع أرضا فرنسية، وعلى الرغم من استمرار بعض المقاومة في تخومه، تلك المقاومة التي تعرفونها أنتم وإخوانكم في السلاح مدى ضراوتها، فإنه يمكن القول أن الاحتلال العسكري لمجموع البلاد قد تم، ولكننا نعرف نحن الفرنسيين، أن انتصار السلاح، لا يعني النصر الكامل، إن القوة تبني الامبراطوريات، ولكنها ليست هي التي تضمن لها الاستمرار على الدوام، إن الرؤوس تنحني أمام المدافع، في حين تظل القلوب تغذي نار الحقد والرغبة في الانتقام، يجب إخضاع النفوس بعد أن تم إخضاع الأبدان، وإذا كانت هذه المهمة أقل صخبا من الأولى فإنها صعبة وتتطلب في الغالب وقتا أطول». هذا التوجه، وهذا التخطيط الممنهج، كصورة واضحة المعالم لايديولوجية فرنسا في التعليم، له امتداد في المسألة الثقافية، وإذا كانت مكناس قد دخلت تحت السيطرة الفرنسية في 8 يونيو 1911، فإن هذه السيطرة قد بدأت تتحكم في المؤسسات التعليمية التي تم تصنيفها حسب المصلحة، وما تقتضيه طبيعة المرحلة وحاجياتها الآنية والمستقبلية من إحداث قنوات جديدة، وأدوات تنفذ المشروع الاستعماري. وهكذا وجدنا مدارس خاصة بأبناء الأعيان، وبعض الثانويات الاسلامية، والمدارس المهنية...

وحتى تكتمل معالم هذا المخطط، لتجتمع أجزاؤه كوظائف تتحرك في اتجاه واحد، وداخل حقول متباينة، برزت المؤسسات الثقافية «العصرية» في مكناس لمواجهة المؤسسات «القديمة». ففي سنة 1920 ـ 1921 تم بناء سينما «ريجان» (التي كانت تسمى ذلك بالمسرح البلدي) وفي بداية العشرينات وحتى سنة 1933 أسس المعهد البلدي للموسيقى، وبعده تم بناء سينما لامبير، و... و «كاميرا» و سينما «موندیال» و«أبولو»

ولكن كيف يمكن قراءة هذه البنايات ؟

وما خلفيات هذه البنايات كنص له هويته الخاصة ووظيفته ؟

أولا : يجب أن نتعرف على تقسيم مدينة مكناس وكان تقسيما عنصريا :

أ ـ الغرب النافع/القسم النافع : حمرية أي المدينة الجديدة

ب ـ الغرب الغير النافع/القتتم غير النافع : المدينة القديمة ونواحيها.

ثانيا : هذا التقسيم يقوم على ثنائية ضدية، على المتناقضات، على التباين، ف «حمرية» هي الادارة، التقدم، والنموذج ورمز المعاصرة، والتحضر، والمدينة «تحت» يجب أن ترقى الى فوق الى العالم المتمدن.

إنه الخطاب الذي انتجه موقع «حمرية» التي اختار لها «المعمرون» موقعا استراتيجيا يقيها من هجوم «الأوباش» كما كان الفرنسيون يذيعون ويرددون. لقد كان التحصين على الشكل التالي :

1 ـ هناك ما يسمى ب «كابوبلا» وهو تحريف لاسم «معسكر لوبلان».

2 ـ وهناك راسغين أو رأس الخيل.

3 ـ وهنا وادي بوعمايز. وهو نقطة التماس الذي يفصل بين المدينتين لقد كان نقطة تفتيش وعبور للوصول الى «حمرية» مرورا بمعسكر لوبلان.

وهناك نقاط هامة لعبت أدوارا متممة لهذا التحصين بطريقة أو بأخرى. فهناك «دار جنرال» بسيد الحريشي «وهناك دار الرهبيات بباب تزيمي الصغيرة إحدى مداخل المدينة الرئيسي. وهناك الأبواب التي كانت تحت مراقبة مشددة، باب الريح، باب برد عاين، باب تزيمي الصغيرة، ومداخل قصبة هدراش...

وحتى تكتمل العناصر المكونة للايديولوجية الفرنسية في مدينة مكناس سأحاول أن أربط بين ماهو ايديولوجي وبين ماهو عمراني من خلال نموذجين اثنين : سينما «أبولو» وسينما «موندیال» بشارع روامزيل. لأن موقعتهما في إحدى الشوارع التي تعتبر صلة وصل بين قلب المدينة وحمرية ليس محض صدفة أو بريئا.

أتساءل هنا : ماذا تقول الأسطورة اليونانية ونحن نستعرض هذين الاسمين ؟ في الألياذة لـ «هوميروس» يظهر أبولون، (أبولو) ليلا، إنه اله القوس الفضي، إنه يلمع كالقمر. وهنا يجب النظر الى تطور الافكار وتأويل الاساطير، للتعرف على أنه اله الشمس، اله النور، ولنقارن قوسه وسهامه بالشمس واشعتها إنه يظهر في الاغنية الاولى من الالياذة كإله منتقم، ينكشف تحت علامات القوة والبطش وحماقة الكبرياء، إنه يحقق التوازن والانسجام بين الرغبات، ليس بإلغاء الرغبات الجنسية ولكن بتوجيهها الانسان روحيا وتدريجيا لتطوير ضميره وغفله.

إن توظيف الأسطورة في فضاء إسلامي له مقوماته الخاصة، وأسسه الحضارية التي تربطه بالمكان والزمان، إنها الوظيفة المتسترة وراء البناية / السينما. والوظيفة التي تريد أن تمدن هذا الانسان، تريد أن تحول ديجوره، نورا، أي تخرجه من الظلمات الى النور، إنها تسمية ليست بريئة، لأن كل شيء يؤسس على وعي، ويخطط له بوعي لينحت لنفسه وجودا داخل فضاء يناقضه، وعالم يؤسس فيه سلطته بما هو خفي ومتستر. وهو ما تكامل مع الاسم الآخر «موندیال» نسبة الى عالم «Mondial» حيث نجد في التحليل الأسطوري لهذا الاسم إن هذا العالم يتكون من عوالم ثلاث :

1 ـ العالم الأول هو العالم السماوي أو عالم الاله والذي وجدناه كـ «لاهوت» في كنائس «حمرية» ودار الرهبيات في المدينة القديمة. أي كمسيحية كدين يقابل الاسلام.

2 ـ العالم الارضي وما فيه من موبقات وخطايا وآثام يجب أن يتغير عمقا ليسود فيه الحب والتآخي. أي تحويله الى عالم نافع.

3 ـ العالم الجهنمي أو الشيطاني.

وطبعا فإن هذه العوالم كفضاءات متخيلة لها علاقتها بالواقع، سيما عندما تسيس وتصبح ذات وظيفة مغايرة لما كانت عليه لتمارس قوتها وتأثيرها على المتلقي الجديد.

إن هذا النوع من التسمية «موندیال» يدخل في هذا الاطار، إطار وضع «الأوباش» «Indigénes» في العالم الأرضي المبحوث عنه، وتقريبهم من العالم السماوي «برؤية مسيحية» سواء ما قام به رهبان «الدريبة» أو دار الرهبيات إن المدينة القديمة هي العالم الأرضي. وإن حمرية هي مادية الواقع وتقدمه ونموذجه الحي. والمثال الذي يجب أن يحتدى. إنها الامبراطورية المركز، والمدينة القديمة المحيط. أو العالم غير النافع.

هذا الزعم تترجمه أسطورة أخرى لاسم لبناية، لسينما أمبير الاسم المشتق من «EMPER EUR»، وهو اللغز الذي يرمز بسيف الامبراطور الى الامبراطورية، أي الى السيطرة، الحكومة،

القوة، النصر، التسلط. وفي الآخير يشير الى التفوق في الذكاء في النظام البدني والمادي وهي العناصر التي تكمل لنا عناصر المعادلة عندما يلتقي السيف والنور والعالم كواقع مادي ملموس فيه امتلاك قوة الحضور في الحاضر مقابل قوة وطنية كانت تقض مضجعه بحثا عن السيادة والكرامة والاستقلال.

قوة الحضور ـ هاته ـ أوجدت لنفسها مبررات لوجودها داخل هذه البنايات وخارجها.

1 ـ لاشعار المعمرين أنهم يعيشون داخل فضاء قريب من طقوسهم وعاداتهم وثقافتهم، بإقامة حفلات داخل السينمات الموجودة في حمرية.

2 ـ لابعاد الملل والخوف عنهم سيما بعد أن شكلت الحركة الوطنية بمكناس وعيا تاريخيا متقدما لم يبق حبيس القول بل تعداه الى الفعل بعد ان اقتحم «النصارى» ديارهم. إنها المقاومة التي تشكلت في مرحلتين : الاولى من 1911 ـ الى 1918 والثانية من 1919 وتنتهي سنة 1937. أما خارج هذه البنايات فقد حاول الفرنسيون محو التراث الشعبي، وخلخلة الذاكرة الجمعية. وذلك بالاقتراب ـ أكثر ـ من المدينة القديمة، الى «الحبول» الذي قال عنه المؤرخ عبد الرحمان بن زيدان : «إنه كان مربطا للابقار، وكان مكانا لبيع الحليب لكنه تحول الى حديقة عمومية، وحديقة حيوانات»، والى مسرح يقع خلف دار الرهيبات، حيث كانت تقام فيه الحفلات المدرسية، والاستعراضات، وكانت بعض الثانويات «بويميرو» تنزل (من فوق الى تحت) لتقدم فرجاتها، الى بعض الأطفال الذين أسعفهم الحظ للحضور، ملمعة بذلك الصورة الاوربية أمامهم، ولتشكل داخل ذاكراتهم صورا جديدة، وذوقا لم يألفوه من قبل.

هنا أطرح السؤال التالي : ماهو دور المغاربة أمام هذا الشكل من الغزو ؟

أؤكد على أن هذه المرحلة، كانت مرحلة فعل وممارسة ومقاومة شعبية، ولم تكن لمغازلة الواقع أو مهادنته ومصالحته. كانت كتابة بالجسد الذي يعانق الشهادة بالجهاد، وكانت كذلك كتابة بكلام صاغ صوته في عوالم شعرية تنبض بعبق الواقعي، وتلتحم بالمعيش والتحام النظرية بالممارسة، وبعشق الوطن لان الكتابة هي الوطن، والوطن هو الحياة والنور والهواء. لقد كان الشعر وثيقة تشهد بميلاد الأمل الجديد، والرؤيا المستقبلية كما تحققت في دلالات هذا الشعر كذات متحركة تنتقل من منطقة الى أخرى، ومن سجن الى آخر، على اعتبار أن الذاكرة تقوم باختزانه وتفريقة في اللحظات الحرجة، في أي مكان وزمان ليلعب دوره في إنكاء جذوة الحماس، أما المسرح فقد كان محاصرا لان شروط المنع كانت تنفي التعبير الحر، وتلغي حرية الانسان وحرية الوطن. لقد كانت فرنسا تصادر القول والفعل وكل التجمعات وكل الاحتفالات الشعبية. لانها كانت تخاف من انبجاس الصوت الجماهيري محتجا ورافضا لواقع الحصار. وهذا ما دفع برواد الحركة الوطنية في مكناس الى خلق قوة ثقافية تقف في وجه الغزو الثقافي الفرنسي الذي كانت المدارس والسينما ـ قنوات لتمرير المستورد. وقد تمثل ذلك في مدارس وطنية التوجه، قومية الأبعاد، فهناك مدرسة الفتح بالزيتون مدرسة الحسنية بالحبول. مدرسة الرشاد بدرب السلاوي، مدرسة السقاط والاسماعيلية والمعهد المحمدي بدرب الخوخ والنهضة بسيدي علي منون. ومدرسة ابن خلدون في «بين المعاصر».

ماذا كان يجري في هذه المدارس الحرة ؟

زيادة على المقررات ذات التوجه التربوي الصحيح، والتكوين الوطني الواضح، كانت «الأنشطة الموازية» تركز على تلقين الاناشيد الوطنية باللغة العربية الفصيحة في مواجهة اللسان الفرنسي، وكانت هناك العروض المسرحية ذات المنحى التعليمي الذي كان يتكامل مع المضامين الحية للاناشيد.

لقد كانت هذه المسرحيات النواة الحقيقية التي أنبنت عليها الحركة الثقافية في مكناس، فتجذرت أصولها، وترسخت قواعدها، لتواجه المد الاستشراقي الذي كان يروج لبعض «الظواهر المسرحية» بنظرة سياحية تشكك في بعض الظواهر وتقدمها في شكل شعوذي تهريجي يتنافى مع أصالته وخصوصياته.

إننا عندما نقوم بسبر أغوار هذه «الظواهر المسرحية» نجد أنها تعبير عن ظواهر اقتصادية في الاساس، ففي الوقت الذي نزع المعمرون الاراضي من أصحابها الشرعيين نهبوها، واستثمروا خيراتها،

ظهرت مجموعة من المشردين كونت ـ فيما بعد جيشا احتياطيا لفرنسا ـ منهم من هاجر الى فرنسا للعمل في المناجم والمعامل، ومنهم من تم الحاقه ـ عنوة ـ بالجيش الفرنسي ليحارب بجانب فرنسا وليدافع عن مصالحها بعد أن قدم لهم نموذج الغربي وهو يعيش في المدينة، أنيقا يخفي ظاهرهُ، كل التناقضات، والصراعات التي تسكن أناقته وقامته الملتفة حول نرجسية تكره الآخر، وتزرع فيه عقدة الدونية، أما الذي لم يستطع اللحاق بالعمل في الخارج، أو في الجندية فانخرط بتراثه وثقافته الشعبية، في التظاهرات المسموح بها ـ والتي كانت ساحة الهديم يوم الخميس الذي كان يوم السوق، أو كانت أمام ساحة الضريح الشيخ الكامل كأماكن لهذه التظاهرات.

إن الأسطوري الذي وجدناه في البنايات يخفي السياسي والايديولوجي بدأ يعود ـ معلنا عن نفسه ـ في ما أسماه البعض ـ بالظواهر المسرحية. إني أقول أنها ظواهر مشكوك فيها، لأنها من تكريس الذين مهد واللحملة الاستعمارية والذين نسميهم بـ «السوسيولوجيين» لقد درس هؤلاء المجتمع المغربي حسب المناطق والعقليات والثقافات واللهجات، دراسة من الداخل فتعرفوا على الميكانيزمات المتحكمة في هذا المجتمع، وبعدها بدأوا في تنفيذ ما خططوا اليه. ومن بينها هذه الظواهر التي تسمى «ما قبل مسرحية».

وأذكر هنا ـ المراقب المدني في مدينة مكناس «برونير» الذي درس في مولاي ادريس زرهون، حيث حفظ القرآن، وتعلم اللغة العربية واتقنها. وعندما دخل الى مكناس دخل كمراقب مدني، وقد استدعى نوكيس ليدشن موسما بمولاي ادريس الأكبر.

إذن هذه الظواهر كان يشجعها ـ هؤلاء ـ أما الكتابات الجادة والمسؤولة لبعض أقطاب الحركة الوطنية في مجال نقد الواقع فقد ضاعت، أو أحرقت مع وثائق أخرى، بعدما بدأت حملات التفتيش تقتحم المنازل، بعد نفي الملك الشرعي محمد الخامس. إلا أن المواجهة ظلت مستمرة. أي مواجهة ايديولوجيات البنايات الاستعمارية برؤيا وطنية ووعي تاريخي أعطى لمدينة مكناس ثمرة التكوين في المدرسة الوطنية التي أشعت بنورها على الثقافة المغربية.

يمكن تلمس هذه المواجهة في الانتماء الى حزبين سياسيين حزب الشوري الذي ضم ابراهيم الهيلالي. ومحمد المنوني (المدعو الخو) ومحمد بن عزو، أحمد بن مدان السلاوي، أحمد بن عبود ومحمد الطاهري، ومحمد العرائشي، وسيدي المهدي العلوي ومحمد العلوي، والفقيه محمد بن العلمي الاجراوي والفقيه الأجاني. وحزب الاستقلال الذي كان بين صفوفه : محمد بن أحماد الديغومي، محمد بن عزو ـ محمد برادة والعلمي الادريسي الشبيهي...

والملاحظة المهمة هنا، هو أن هذين الحزبين انشآ جمعيات تربوية موازية، كانت تهتم بـ «الطفولة» و«الشباب» بتأطير متشبع بالقيم الأخلاقية، وبالانتماء الى الوطن العربي لمواجهة الاستعمار الفرنسي وجمعياته وأنشطته. ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر :

1 ـ جمعية المنظمة الكشافة المغربية الاسلامية وهي تابعة لحزب الشوري وكان مقرها ـ ولا زال ـ بزنقة سدرسة بعقبة الزيادين. هذه الجمعية تأسست في أواسط الأربعينات، ومن مؤسسيها محمود العلمي. ومن قادتها الحاج المكي بن عبد الجليل، الحاج عبد السلام بوزوبع، الحاج محمد بن عبد الجليل وفي الخمسينات التحقت بهم : عزيز بن الجليل ـ ادريس المسكيني، بوزوبع محمد، اسماعيل البراق عبد الرحمن الودغيري.

2 ـ الكشفية الحسنية وهي جمعية كانت تابعة لحزب الاستقلال، وكان مقرها بدرب السرب «بريمة».

ومن أهم قادتها بمكناس عبد الهادي السنتيسي، محمد جلال الصافي، محمد الديغومي، محمد فؤاد البرنوصي، محمد الصديقي، المهدي الملوكي.

ومن الجمعيات التي لعبت دورا فنيا هاما في هذه المرحلة جمعية الوحي المسرحي وكان رئيسها مولاي عبد الله العلوي ومن أهم المسؤولين عنها عبد الجليل السعيدي. وكان روادها من تلاميذ النهضة الاسلامية أو المعهد الاسلامي. أما قدماء تلاميذ مكناس وكان من المسؤولين عنها محمد السنتيسي وعمر بن شمسي طبعا لم تكن الظروف ملائمة لممارسة النشاط السياسي والثقافي بحرية، وباطمئنان ولم يكن الجو العام مناسبا للتعبير، والكتابة بشكل مكشوف وعلني. لأن الاستعمار الفرنسي

وأدواته وأجهزته كانت تلاحق كل من اشتم فيه رائحة الرفض والإحتجاج، وهناك لائحة طويلة جدا من الوطنيين الذين تم نفيهم من مكناس، أو حوكموا علماء كانوا، أو سياسيين، وهنا لانفرق بين المفكر والفكر، والسياسي والسياسة، والوطني والوطنية لأنهما كانا وجها لحقيقة واحدة، هو الانتماء للوطن والتعبير عن هذا الانتماء بالكلمة والقول والفعل. حسب ما يمليه الظرف.

وهنا يصعب وضع حد يفصل بين العالم والسياسي، لهذا وعندما سنعرض بعض الأسماء التي عادت البناية الفرنسية كايديولوجية، وحضارة دخيلة، ونماذج مستوردة نجدها شاعرة، من جهة، وسياسية من جهة ثانية، وإسلامية من جهة ثالثة، إنها المكونات التي أعطت لنا حركة هامة في مدينة مكناس، يصعب فيها الفصل بين هذه المكونات.

ففي الشعر ـ الذي يطول الحديث في مضامينه ونوعية الانتاج ـ وشكل هذا الانتاج فيه، هناك شعراء أكدوا حضور القصيد كموقف وطني، فيه بعد مدحي وآخر رومانسي، يختلط بما هو وطني، ومن الشعراء المكناسيين نذكر محمد بن عبود ـ محمد العرائشي ـ عبد العالي المنوني (وكان ينشر في جريدة الرأي العام) عبد الرحمن الزياني (وكان ينشر في الأنيس ـ والرأي العام) بن فقيره محمد، عبد الرحمن بن زيدان (في المدح) علال الهاشمي الخياري، ادريس العرائشي، عبد الرحمن بن شقرون، الذي (ربما) ضاع كل إنتاجه.

ومن العلماء الذين تشبعوا بمبادىء وأسس الحركة السلفية، واحتكوا بأعلامها وروادها، العربي العلوي، علال الفاسي وغيرهما، هناك الفقيه محمد المنوني المختار السنتيسي، أحمد بن شقرون، العربي الهلالي، الفقيه الزريهني (صاحب الخطبة الشهيرة في أحداث بوفكران 1937) الطيب الحريف، أحمد بالصديق، محمد بن احماد الديغوسي، عبد الرحمن بادو، الحاج العيساوي المسطاسي (أحد الموقعين على وثيقة المطالبة بالاستقلال) الفقيه برادة، الفقيه الأجاني، عبد القادر بن سعيد، التجاني بن رحال.

أما الوطنيون فذكرهم يطول، واكتفي هنا ببعض الشخصيات، التي يجب أن يفرد لها بحث خاص، عن دورها، ونضالها، حتى نفيها حقها، من بين هذه الشخصيات، العلمي الزهراوي، المحجوب بن الصديق، مولاي مصطفى العلوي، الحاج العلمي الصنهاجي، عبد المالك التراب، عبد القادر التراب، عبد السلام التراب، الحاج عبد الرحمن الصائغ، فضول الصائغ، عبد اللطيف الصائغ، ادريس المحمدي، عمر بن شمسي، محمد عمور، الحاج محمد الغمري، عبد الرحمن الغمري، محمد بادو بن قاسم، محمد الصديقي، احمد الكرامي، محمد بوعسرية، الجيلالي المزوار، المختار المزوار، محمد المزوار، مولاي مصطفى بن زيدان، الهادي بن الطايع، محمد التازي، عبد القادر بناني، عبد الوهاب بناني، العربي المجدوبي.

إن هذه الأسماء كوثيقة تاريخية أو شهادة عن هذه المرحلة، تؤكد أن المد الوطني كان يحفر وجوده بتحد وإيمان واقتناع بضرورة المواجهة، مواجهة البناية كرمز وواقع وما يحمله هذا الواقع، ومن يحرك الواقع. ويكفي أن مكناس بين سنة 1921 ـ 1956 كانت وراء أحداث كثيرة زعزعت الكيان الفرنسي وقواته، وتبقى 2 شتنبر 1937 وضحايا هذه المعركة المعروفين عنهم والمجهولين علامة بارزة في تاريخ العاصمة الاسماعيلية.

عبد الرحمان بن زيدان

وثائق حول التاريخ السياسي والاجتماعي لمدينة مكناسة في العصر الوسيط : (من خلال الانتاج الأدبي والتاريخي والنوازل) ★

ابزاهيم القادري بوتشيش
كلية الآداب
مكناس

لازال البحث المونوغرافي الخاص بتاريخ المدن المغربية في العصر الوسيط يتسم بالندرة، مقارنة مع ما أفرزته الكتابات التاريخية الاوروبية، من تراكم كمي في نفس الاتجاه (1). هذا لا يعني أن النموذج الأول لم يخلق شروط «نهضته» بعد، أو أن الشروع في التجربة المونوغرافية يعد اغترابا تارخيا، انطلاقا من ثنائية الأنا والآخر، ذلك أن التاريخ المونوغرافي، تواجد بشكل مكثف لدى المؤرخين المغاربة في العصر الوسيط. ويكفي أن نسوق في هذا الصدد بعض الأمثلة حتى يتدعم هذا الرأي. فقد ألف محمد بن يوسف الوراق (ت 292 هـ) مصنفات متعددة حول مدن مغربية مثل البصرة، ونكور، وسجلماسة (2). كما صنف مؤرخ مجهول يرجح أنه الجزنائي كتاب «تقريب المفازة في تاريخ مدينة تازة» (3)، ناهيك عن المؤلفات التي وصلتنا سالمة، وقد نشر معظمها (4). إلا أن القيمة الوثائقية لهذه المصادر، تظل محدودة لخلو معظمها من الوثائق الهامة، خاصة تلك التي تسمح بكشف النقاب عن البنى الاجتماعية للمدينة المغربية.

ونتيجة لذلك، يمكن القول أنه إذا كان مؤرخ مدن العصور الوسطى الأوروبية، يحظى بفيض من الوثائق المحفوظة في خزائن البلديات والبابويات، (5) أو الارشيفات الاقليمية لمختلف المدن، (6) والخزانات الخاصة، فإن الباحث في تاريخ المدن المغربية، لا ينعم ـ للأسف ـ بهذا الامتياز.

والقاعدة نفسها تنطبق على مدينة مكناسة في العصر الوسيط. فعلى الرغم مما حظيت به مكانة متميزة خلال تلك الحقبة التاريخية، لا يكاد الدارس يعثر سوى على نصوص متفرقة، وشذرات تاريخية مبعثرة، فبالاحرى وثائق تزيح الستار عن المسار التاريخي لهذه المدينة.

ولعل هذا ما يفسر اقتصار الدارسين المحدثين على سبر غور تاريخها في الحقبة المعاصرة دون العصر الوسيط (7). أما الانتاج الأجنبي بصدد المدينة في ذات الحقبة، فمن السخف البحث عما يشفي الغليل. وتنهض كتابات «وايت» BRAITH WAITZ (8)، و«شامبيون» CHAMPION (9) و«بوسنو» BUSNOT (10)، وغير هؤلاء حجة على ما نزعم.

والقول بهذا الحكم لا يعني السقوط في أطروحة «جوتييه» Gautierالتي ترى أن الفترة الأولى من تاريخ المغرب الوسيط ـ بما في ذلك تاريخ مدنه ـ تعد مرحلة غامضة لانعدام وثائقها. فتحليل الظرفية التاريخية لمثل هذه التخريجات، تثبت أنها جاءت انعكاسا أمينا للمد الاستعماري الذي عمل دون كلل على طمس وعي الشعوب عن طريق التهام تاريخها. إلا أن التنبيه لخطورة المشكل وأبعاده،

وتفكيك خيوطه، ووضعه في إطاره الصحيح ـ عوض الاطار الاستعماري ـ يعد خطوة نحو تجاوزه. وقد أبرزنا في أحدى الدراسات (11) هشاشة تلك التخريجات، انطلاقا من التراكم المعرفي الذي برز في الاونة الأخيرة، وكذا ظهور بعض المخطوطات المغمورة التي تمت فهرستها (12)، فضلا عن «الثورة المنهجية» التي أصبحت سائدة في الساحة التاريخية، وبينا أن تفنيد مثل تلك الأطروحات، تعد إحدى الأدوات التي تتم بها عملية تحرير نصيب من تاريخنا «المحتل»

غير أن مثل هذه الرؤى الطموحة لاتعد سهلة المنال، بل تتطلب فضلا عن جهود الدارس فيما «اصطاده» من وثائق في بطون المخطوطات، والكتب المنشورة، إعادة النظر في مفهوم الوثيقة نفسها، ذلك أن المفهوم التقليدي الذي يقصر نظرته على الوثيقة ذات الطابع السياسي أصبح ـ بإجماع الباحثين ـ أمرا «غير مرغوب فيه» على الأقل، ومن ثم يصبح الحفر في تراث العامة، إحدى المعاول الثمينة بهدم التاريخ الذي يغيب المجتمع والبنيات. لأن الرؤية التقليدية للوثيقة تعمل إذن على اختزال الصراع الاجتماعي في الصيرورة التاريخية، ولذلك لم تفطن الى وثائق اجتماعية ترقى بمستوى الكتابة التاريخية، وهي الوثائق التي تختزنها كتب النوازل والفتاوى والمصادر الأدبية وغيرها من الموضوعات الدفينة.

من خلال هذه الرؤية، حرصنا على إبراز بعض الوثائق ذات الصلة المباشرة بمدينة مكناسة في العصر الوسيط، فالتجأنا الى ذلك النوع من المصنفات، فضلا عن المصادر التاريخية.

ومن نافلة القول، أن مثل هذا العمل لا يتوخى كشف «الجديد»، لأن المصنفات التي أخذت منها الوثائق المزمع عرضها قد نشرت مؤخرا. إلا أن هدف هذا البحث المتواضع يتجلى في تجميع هذه الوثائق، ولم شتاتها لأول مرة ـ حسبما نعلم ـ على غرار ما قام به بعض الباحثين في التاريخ الاسلامي (13). بل إن دراسة هذه الوثائق سيرجأ الى بحث في المستقبل، لأن الحيز الخاص بمقال، يفرض هذا التوجه. ومن ثم نكتفي في هذا المقام بعرض مجموعة منها حسب نوعيتها.

المجموعة الأولى : وثائق حول التاريخ السياسي :

تبرز أهمية هذه المجموعة في ما تسلطه من أضواء لضبط الحقل السياسي المتمثل في التناقض الذي طبع علاقة السلطة بالمجتمع (وثيقة رقم 1)، هذا التناقض الذي نجم عنه أحيانا فقدان ثقة سكان مكناسة بسلطة قادرة على خلق مناخ الاستقرار السياسي، وتوفير شروط الأمن والعدالة، وبالتالي إعلان القطيعة مع الحكم المركزي، والتحول نحو سلطة «ثانية» (وثيقة رقم 2). وهو ما يعني أن البحث عن قوة «حامية»، شكلت إحدى الهموم الرئيسية لسكان مكناسة، ولذلك ظلوا طرفا سياسيا متواجدا بموازاة الحكم المركزي، يتمرد عليه أحيانا كلما فقد فيه ثقته، ويتعامل معه حين يشعر بفشله في تحريك استراتيجية المواجهة، وضرورة احتمائه بسلطة قادرة على قطع دابر الفتن (وثيقة رقم 3)، الشيء الذي يسفر غالبا عن عملية «المصالحة» بين الحكم المركزي وسكان مكناسة (الوثيقة 4).

ودون الدخول في التفاصيل نحاول أن نعرض لهذه الوثائق :

وثيقة رقم 1 : رسالة الكاتب ابن القصيرة الى سكان مكناسة : (14)

«أما بعد، أصلح الله من أعمالكم ما اختل وأصلح من وجوه صلاحكم ما اعتل. فقد بلغنا ما أنتم بسبيله من التقاطع والتدابر، وما ركبتم رؤوسكم من التنازع والتهاتر، فقد استوى في ذلك عالمكم وجاهلكم، وصار شرعا سواء فيكم نبيهكم وخاملكم لاتأتمرون رشدا ولا تطيعون مرشدا، ولا تأتون سددا ولا تخون مقصدا، ولا تفلحون إن لم تنزعوا عن غوايتكم أبدا، فلا يسوغ لنا أن نترككم فوضى وندعكم سدى، ولا بد لنا من أخذ قنانكم بثقاف أما أن تستقيم أو تتشظى قصدا. فتوبوا من ذنب التباغض بينكم والتباين، وأهصوا شياطين التحاقد والتشاحن، وكونوا على الخير أعوانا، وفي ذات الله إخوانا، ولا تجعلوا للعقوبة عليكم يدا ولا سلطانا، واعلموا أن من نزع بينكم بشر أو نفث في فتنة بضر، وقام عندنا عليه الدليل واتجه اليه السبيل، أخرجناه عنكم وأبعدناه منكم فاتقوا الله وكونوا مع الصادقين، ولا تتولوا عن الموعظة وأنتم معرضون، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون وحسبنا هذا وبالله التوفيق..»

الوثيقة رقم 2 : نص بيعة سكان مكناسة لامير الحضرة التونسية (15)

الحمد لله العلي الكبير، اللطيف الخبير، خالق الخلق غنيا عن المثال والنظير ومقدر الأشياء على ما اقتضته حكمته من التدبير (يدبر الأمر من السماء الى الأرض ولا اضطرار في الأمر ولا اضطراب في التقدير) مكور الليل على النهار ومكور النهار على الليل فتاهت العقول وفني المقول في الشاهد من أسباب التكوين والتكوير، وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد المبعوث بالكتاب المنير، المنعوت بالبشير النذير، طلع بدرا باهرا لـطالع هاديا بنوره الساطع،والأرجاء مدلهمة بالدياجير، والجاهلية في غلوائها احتقاب مذمة الجور واحتقار لذمة الهجير فثنى الخلق عن شرودهم وسفر بين العباد ومعبودهم فكان شرف السفارة على قدر شرف السفير، ومكانه عند الله كما اختاره من الرفيق الأعلى حين أتته رسالة التخيير صلى الله عليه وعلى آله المنتخبين من معدن التقديس والتطهير، وأصحابه المهاجرين الفائزين من تواب صحبته بالمقام الشهير والحظ الجليل الخطير والأنصار الذين قاموا بنصرته عند عدم النصير، واستأثروا به حين رجع الناس بالشاء والبعير، صلاة تتوالى عليه وعليهم مالاح الصباح باهر التباشير، ونثرت الرياح جواهر الغصن المطير، ورضي الله عن المهدي المعلوم مجدد رسم الهداية. وقد كان على خطر من التغيير، وعلى خيرة أوليائه وأصحابه الذين استعمرهم الله أرضه فأقاموا سنة الله وفرضه مختارين من أروم الكرم والخير، متواصين في إظهار أمر الله بغاية الجد، ونهاية التشمير، ونرفع الدعاء في مظان قبوله، ومواقف الرجاء في وصوله لمولانا الامام الأعظم والملاذ الأعصم الأمير الأجل الهمام الطاهر الأسعد الأشرف الأعلى المؤيد المنصور ناصر الدين وكافل الاسلام والمسلمين أبو زكرياء بن الشيخ المعظم المقدس المجاهد الأرضى أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص ولولي عهده الكريم وسليل مجده الصميم الأمير الأجل الهمام المؤيد أبي يحيى.

أما بعد فإن الله سبحانه خلق الخلق بالفطر والصور متفاوتين، وعلى عرض هذا الأدنى متهافتين، وجعل السنة التي أعلى اعلامها وبين اكرم خلقه عليه السلام احكامها لأمر مصالحهم ناظمة، وعلى أخذهم بالتناصف والتعاطف قائمة، لا يصلح الناس فوضى، ولا يترك الغواة إذا أهملهم الولاة تقحما في الباطل وخوضا. ومن نعم الله على الرعية هداية رعاتها واستقامة قادتها الى سبيل النجاة ودعائها، وأن يكون أهل الفضل والورع بطانتهم ويتولى الأخيار والصلحاء انجادهم وإعانتهم، فبهذا تتم النعماء وتسكن الدهماء وتحقن في أهبها الدماء، وكما أن ضد هذه الحال مؤذن بخراب العمران وتسلط حزب الشيطان. ومن المقول المقبول يزع الله بالسلطان مالا يزع بالقرآن، والمشاهد في هذه المدة كان قد أحال أوجه الأيام وأشمت الكفر بأهل الاسلام، وما زال عدو الدين يشفي منه صدره ويركب أهله بما يتعاظم أحدنا ذكره وإلى أن انقضت بحمد الله مدة الاملاء، وأذن كسوف الأحوال بالانجلاء، فطلع الفجر على المغرب من ثنيته، ورأى بعد الشك برهان برئه من شيكته ينادي به الجد الذي استقال من عثاره، وخرج قمره من سراره، قد أمكنت الفرصة من يبتذرها من بلاده، واصطفت الحلبة فأعد لها المقرب من جيادك، وهذا موقف الخبرة قد بدا، وإنما يفوز بالخصل السباق الى المدى. ومكناسة هي التي ولجت هذا الباب، وأسرجت وليل الخطب مرخى الجلباب، ورأت فرجة الفرصة فنصت، وقيد اليها في يد القهر وأتزاها من عوارض الدهر فأقصت، وعلم أهلها انه لا يصلح مع التقصير غيرة ولا تقبل بعد الفتح هجرة، وان دعوة الامارة التي تزف بنات الآمال سباحتها، ويخف ثبات الجبال عن رجاحتها وهي الدعوة الواقعة مواقع سحبها، اللامعة في مطالع شهبها المبني على ضرب العدا وقسمة البأس والندى حساب كتائبها وكتبها هي مطمح الهمم ومرقاها، ومجتمع الأماني وملتقاها، والمفزع من متسلط تبصر البيض منه صيدها فتود أن حدها منه سقاها، وتصبو لأن تصيب مصية بأسعدها كما كان المصيب سميها أشقاها، لا جرم أنهم خلعوا طاعته خلع النجاد، وضربوا بينهم وبينها بأوثق الاسداد، وولوا وجوههم قبلة ترضاها عبادة الوفود ووفادة العباد، وابصروا فجر الحقيقة، وقد أذهب الله بخيط البياض من خيط السواد حيث مياه الكرم مفجرة ووجوه الأمم معفرة وأعاظم الرجال أمثلة مصغرة وضراغم الاغيال في حومة النزال حمر مستنفرة.

وعندما أخرج الحق تلك العهدة، وتمخض الرأي عن صريح الزبدة، اتفق منهم العلماء والصلحاء والأشياخ والأعيان والنصحاء ووجوه القبائل والعشائر وكافة طبقات الناس من البادي

والحاضر على أن بايعوا الامام الهادي الأمير الأجل أبا زكريا بين الشيخ المجاهد أبي محمد عبد الوهاب بين الشيخ المعظم أبي حفص بيعة رفعت بالعدل معالمها، ووضعت على التقوى دعائمها، وصادف وقت الحاجة بيانها، وأسس على تقوى من الله ورضوان بنيانها، أبيضت وجوه المنى وكم تغيرت ألواحها، وطلقت لها شمس الهداية من مشرقها فنفع الناس ايمانها، ورفع البؤس قرانها الاسعد وزمانها، أعطوا بها صفقة ايمانهم مبادرين، و شكروا الله على نعمة القيام بها وسيجزي الله الشاكرين، على السمع والطاعة والارتباط بلزوم الجماعة والانقياد للاوامر والسواجد بمبلغ الوسع ومجهود الاستطاعة، في السير والعسر والقل والكثر، والسراء والضراء والشدة والرخاء، وعلى ما بايع عليه سلف هذه الأمة أئمتهم، وأعطوا بها عن بصيرة ونقاء سريرة عهودهم وأذمتهم، النيات في الوفاء بها صادقة، والألسنة بشكر الله ناطقة، والظواهر مع البواطن في التزام أحكامها والانقياد بزمامها متوافقة متطابقة، طوقها لهم ألزم من طوق الحمام، وربقتها منعقدة في أعناقهم بريقة الاسلام وبعد أن أبرزوا عملها في أبهى صورة الاعمال واستوفوا عقدها في شروط الصحة والكمال، أتبعوها بأخرى تنتزل بها منزلة السورة من الفاتحة، وتدل على روضها النضير بنواسمها النافحة، وهي البيعة للامير أبي يحيى وفرع الدوحة العليا ونظام أمر الدين والدنيا نصر الله أعلامه، وأسعد أيامه وأمضى في عدوه الماضين القاضين رأيه وحسامه على سنة البيعة لولاة العهود وما مضى العمل عليه في مثلها من مهمات الأمور ومبرمات العقود، وكلتا البيعتين أمضوها على أساليبها المرعية، وقوانينها الشرعية بنيات كريمة وغيوب سليمة وبصائر وجدت منهم أمضى عزيمة أشهدوا عليها الله الذين قوله بالوفاء مرتبط بايجابه، وأمره الذي لا تقوم السماء والأرض إلا به وكفى بالله شهيدا وكفى بالله عليما (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما) وكتب الملا المذكورون بكل ما ذكر فوق هذا بخطوطهم الشاهدين على أنفسهم بنصه كله وعاقدين منه مالا رخصة لأحد من الأحدين في حلة وذلك في يوم الجمعة الموفى عشرين لربيع الأول من سنة ثلاثة وأربعين وستمائة».

الوثيقة رقم 3 : فصل من رسالة بعثها سكان مكناسة الى الخليفة الموحدي المامون (16)

«... فالعبيد أيدكم الله هالكون لا محالة، وحياتهم في حيز الاستحالة، إلا أن يتدارك الله تعالى بلطفه، ويتلافى الجميع بجزيل عطفه، ومعروف أن هذا القطر حماه الله قفل الغرب، والبلاد معتمدة عليه اعتماد الحسام على الضرب، فإغاثته واجبة، وحمايته حجابة، فالعجل العجل قبل بلوغ الأجل، والغياث الغياث قبل تمكن الفساد والأعباث...

... رفع هذه الشكوى الى المكان الامامي الأعلى ـ أدام الله أيامه، ونصر الويته وأعلامه ـ عبيده المستجيرون بعدله أهل مكناسة تلافى الله برحمته تلافها، وتدارك بلطفه قطانها وألافها، مستصرخين جلاله، مسترقبين إقباله، فالعبيد في حكم الفوات وعدد الأموات، وعدل المقام الأعلى كفيل بتدارك أرماقهم وحلهم من وثاقهم، كتب في شهر كذا، من عام تسعة وعشرين وستمائة».

الوثيقة رقم 4 : أجزاء من نص تجديد بيعة سكان مكناسة للخليفة الموحدي السعيد (17)

«الحمد لله مقدر الأمور، ومصرف المقدور، ومخرج عباده من الظلمات الى النور، عالم السرائر، ومنور البصائر، ورافع الدرجات وواضع الخطيات، وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وسع كل عاص حلمه، وأحاط بكل شيء علمه، ونفذ في كل موجود حكمه، لا راد لما به حكم وأمر، ولا ناقص لما أحكم وأمر، قدر الأشياء وأتقن الانشاء، وأتى ملكه من شاء، وأسس بالامامة مباني الديانة، ووصل بها للرعاية أسباب الرعاية، وأمد من أهله لوراثة مقامه الأسمى، واختاره لأمانته العظمى، بالانجاد والاعانة...

... اللهم أرض عن خليفتك في عبيدك، المرتسم في ديوان أوليائك وعبادك، الامام المؤيد، والحسام المهند الأتقى، الأطهر، الأعلى المعتضد بالله أمير المؤمنين أبو الحسن بن سيدنا الخليفة الامام المامون بن الخلفاء الراشدين رضى يبلغه أمله في الدنيا والدين، ويحكم لدولته السعيدة ومدته الحميدة بالتمهيد والتمكين، ويجعل كلمته الباقية الى يوم الدين. اللهم كما انتقيته من أكرم جرثومة، وسددته لاقامة حدود الله المرسومة فضاعف اللهم في قلوب رعاياه حبه، وأيد بالملائكة والروح عصابته وحزبه...

... ومن شكرت في الخدمة آثاره، فحقيق أن تغفر زلته وتمحي آثاره، وأن العبيد من أهل مكناسة قد اجتمعوا ووقفوا موقف الاستكانة والمذلة وقرعوا سن الندم على ما صدر عنهم من زلة، واستشعروا لباس الانابة، وبادروا لهذه الدولة المعتصمية بالاجابة، واتفقوا جميعا على أن جددوا بيعتهم لسيدنا ومولانا الخليفة الامام المعتضد بالله أمير المؤمنين أبي الحسن بن الائمة الراشدين، أعلى الله يده ونصره وأيده، حسبما تقدم مستوعبة الشروط، مستوفاة العقود والربوط، لم يستثنوا فيها فصلا، ولا أغفلوا من عقودها فرعا ولا أصلا، بنفوس مغتبطة، ونيات على الوفاء بما التزموه من عقودها مرتبطة، وأشهدوا الله وملائكته على أنفسهم بذلك وهم به عالمون، ومن يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون، وقيدوا عليه شهادتهم في تاسع عشر ذي الحجة من عام ثلاثة وأربعين وستمائة».

المجموعة الثانية : وثائق حول التاريخ الاجتماعي.

تتضمن هذه المجموعة معلومات قيمة عن الاقليات Les minorités المتواجدة في مكناسة وعلى الخصوص النصارى وعلاقتهم بالسلطة المركزية.

وتكمن أهمية الوثيقة الخامسة في رصد موقف الدولة المرابطية من المسيحيين المقيمين في المدينة المذكورة، وهو موقف ينم عن التعامل الانساني الذي مارسته السلطة تجاههم، حيث أخذت وجهة نظرهم في مصير أملاكهم التي خلفوها بمدينة اشبيلية. كما أن حرية عقيدتهم لم تمس قيد أنملة، بالاضافة الى جوانب أخرى من الأهمية بمكان. بينما تبرز أهمية الوثائق الأخرى فيما تختزنه من معلومات دفينة حول المعاملات الاجتماعية من خلال نوازل وردت فيها آراء قضاة المدينة، كالقاضي أبي رمانة. ومنها يمكن للمؤرخ أن يقف على بعض العادات والأعراف والمظاهر الاجتماعية السائدة في مدينة مكناسة كالأعراس وغيرها (وثيقة رقم 6)، فضلا عن أهمية دور المرأة الذي يتجلى في كافة هذه الوثائق، ناهيك عما تنيره من جوانب في المعاملات الاجتماعية، من صدقة وتحبيس ووراثة (وثيقة رقم 7)، وشفعة (وثيقة رقم 8). الى غير ذلك من المعلومات الاجتماعية القيمة.

وثمة وثيقة أخرى عبارة عن نازلة سئل عنها أحد فقهاء مكناسة الزيتون حول مصير سور تهدم هل تكون مسؤولية إعادة بنائه على عاتق سكان المدينة بطبقاتها الفقيرة والغنية على السواء ام يقتصر الأمر على الفئة الأخيرة (وثيقة رقم 9).

كما تطرح الوثائق الأخرى قضايا اجتماعية متنوعة لانجد لها نظيرا في المصادر التاريخية كمسألة الصداق والزواج والطلاق (وثيقة رقم 10).

وعلى العموم فإن لهذه العقود دلالة على الزخم الحضاري الذي شمل الجانب الاداري والقضائي لمدينة مكناسة إبان العصر الوسيط. فلنعرض الان لهذه المجموعة من الوثائق الاجتماعية.

الوثيقة رقم 5 : رسالة من الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين حول مصير أملاك النصارى المغربين الى مكناسة لأحد قضاة غرناطة (18) :

«من أمير المؤمنين وناصر الدين علي بن يوسف بن تاشفين الى الفقيه القاضي أبي القاسم أحمد بن محمد بن ورد والفقهاء المشاورين بغرناطة حرسهم الله وأمدهم بتقواه.

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

كتابنا أبقاكم الله بتقواه، ويسركم لما يرضاه، وأتم عليكم عوارفه ونعماه. من حضرة مراكش حرسها الله في وقت كذا، وقد خاطبنا النصارى المعاهدون المنقولون من اشبيلية الحاصلون بمكناسة الزيتون حرسها الله، راغبين في أن يصل معهم من يتقرر معهم صفة بيعهم لأملاكهم لدينا إذ تخيروا ذلك عندما خيرناهم فيه، وكيف يكون إقرارهم على مراتب شريعتهم التي يقيمون عليها، هذا نص قولهم في كتابهم، ونحن نستفتيكم في هذين الفصلين، فراجعونا بما توجبه السنة فيها، وكذلك أوضحوا لنا وجه العمل في الاملاك المحبسة الموقوفة على بيع النصارى وكنائسهم بالأندلس موفقين إن شاء الله عز وجل وتبلغوا سلاما كبيرا ورحمة الله وبركاته، وكذلك ورد علينا كتاب ابننا أبي بكر أعزه الله بتقواه مضمنا أن قوما من النصارى المعاهدين اسلموا في اشبيلية حرسها الله، وأن جماعة يسيرة من النصارى المتقدم ذكرهم فروا الى بلاد العدو دمرهم الله فتبعتهم الخيل من هناك، فهلك بعضهم وسيق البعض الى اشبيلية وسجنوا بها، فعرفونا بما توجبه السنة في النازلتين موفقين إن شاء الله تعالى

وكذلك ذكروا رهبانهم وأساقفتهم أنهم لاعيش لهم إلا من غلة الأحباس الموقوفة على الكنائس المذكورة، وذلك من الفصول التي يجب الفتيا فيها إن شاء الله عز وجل فيتعين الجواب على ذلك».

الوثيقة رقم 6 : استفسار قاضي مكناسة (19)**حول مسألة عقارية وقضايا اجتماعية** (20)

الحمد الله، أوجب الله لك رضاه وبلغك في الدارين أبلغ ما ترغب وتتمناه في امرأة كانت باعت منذ عشرة أعوام على نفسها وعلى محجورتها بحكم إيصاء كان أسنده إليها أخوها والد المحجورة المذكورة حظا كان بينها وبين محجورتها على الشياع في عقار من (كذا) فقام الآن النائب عن البنت المذكورة بحق توكيل البائعة المذكورة على نفسها وعن محجورتها على مشتري الحظ المذكور، وطلب فسخ البيع واسترجاع الحظ وذكر أن البائعة كانت حين إسناد الايصاء إليها مهملة لكون والدها كان جدد عليها الحجر وتوفي وبقيت مهملة الى الآن. واستظهر بكتاب صداقها مع متزوجها بكرا، وتاريخه تاسع عشر شعبان من عام ستة وعشرين وسبعمائة وببعض أسفله رسم يتضمن تجديد حجر والدها عليها وبين تاريخ الصداق وتجديد الحجر خمسة أعوام وأربعة أشهر ويسير أيام وتاريخ البناء مجهول غير أن في الصداق ما يدل أن البناء متصل بتاريخ الصداق على جرى العرف في بلدهما، فإنه قال في الصداق لما ذكر آجال الكالىء قال إن ابتدائها من حين تاريخ انعقاد النكاح بينهما وذلك في عاشر ذي القعدة من عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة، وجرى العرف أن هذا لا يكون إلا في الأصدقة التي تتقدم الأملاك وتقرأ في اليوم الذي يجتمع الناس لوليمة عرس البناء المعروف عندهم بيوم الكتبة، وفي الليلة المتصلة به يكون البناء.

فعلى هذا يدخل في لزوم الحجر الخلاف الذي ذكره أبو الوليد بن رشد رحمه الله في كتاب الهبات والصدقات في تحديد المدة التي تخرج بها البكر عن حجر والدها بعد البناء، وقال يتحصل في ذلك ثمانية أقوال، ويدخله أيضا خلاف أبي عمر الاشبيلي وأبي عمر بن القطان رحمهما الله تعالى فإنهما ذهبا إلى ان ذلك لايلزمهما إلا ان يكون عند التجديد قد تضمن معرفة شهدائه لسفهها. والتجديد في هذه المسألة لم يتضمن ذلك، ثم إنه لما وقع النزاع بينهما أثبت المشتري رسما يتضمن أيضا أنها لم تزل من قبل البيع الى الآن رشيدة في أفعالها مستقيمة في أحوالها حسنة النظر لما وليت فيه النظر. وسألت من تقدم له عليها شهادة من العدول في وكالة أو بيع أو غير ذلك عن وصفه لها في الوثيقة بجواز الأمر فقال إنه لم يكن عنده علم من تجديد الحجر عليها حين تحمل الشهادة عليها، فهل يترجع إعمال الرسم في هذه المسألة أم لا ؟ فإن المشهور من مذهب مالك وعليه أصحابه ماعدا ابن القاسم ـ كما تعلمون ـ أن المولى عليه لا تجوز أفعاله وإن علم رشده حتى يطلق من الولاية التي لزمته، وهو الذي يظهر لابن القاسم في رسم الكراء والأقضية من سماع أصبغ، وهي رواية زونان عنه بخلاف ماله في رسم جاع فباع امرأته من سماع عيسى، فإنه أخذ هناك في المعلوم من مذهبه المشهور من أقواله من أن الولاية لا يعتبر ثبوتها إذا علم الرشد ولا سقوطها إذا علم السفه فإنه يراعي الحال دون الولاية والمشهور من مذهب مالك مراعاة الولاية، وروى ابن وهب عن مالك مثل المشهور من قول ابن قاسم وذكر ابن سهل مسألة من لزمته ولاية ومات وصية وحكى ما قال ابن أبي زمنين في أقضية المقرب من أن المولى عليه إذا رشد وحسنت حاله فما فعل فهو جائز وإن لم يشهد على إطلاقه من الحجر قاض ولا وصي، قال وبهذا كان يفتي من أدركته من الشيوخ وقد كان بعض من أدركته أيضا يقول من لزمته ولاية لم يخرج منها إلا أن يشهد على إطلاقه قاض او وصي. قال أبو عبد الله وهذا قول ضعيف واحتج بما ذكره ابن رشد في الأجوبة في مسألة رجل محجور عليه بتقديم قاض توفي وصية ثم قدمه قاض آخر للنظر على يتيم أنه إن علم بالرشد قال فالذي أقول به وأتقلده أن يكون تقديم القاضي إياه على اليتيم خارجا من الحجران مراعاة المذهب، ابن القاسم واحد قولي مالك في أنه لا يعتبر بالولاية على اليتيم إذا علم رشده ومسألة الأجوبة قريبة من هذه المسألة ثم أن يبيع الوصي إذا ثبت النظر وصح لا يبيع عقار يتيمه إلا لوجوه معلومة واختلف الشيوخ المتأخرون هل يصدق الوصي فيها ولا يلزمه إقامة البينة عليها وقيل أنه لا يصدق فيها وتلزمه إقامة البينة عليها وذكر المتيطي أن معرفة الشهود بالوجوه الموجبة لبيع الأوصياء على الأيتام تحصين لها، فإن سقط ذلك منها لم يوهنها سقوطه إذا كان السبب الذي ذكره الوصي في داخل العقد أنه باع لأجله معروفا ولم يتبين خلافه وذكر مولى

الطلاع في وثائقه إذا كان الوصي مأمونا ذا ميز ومعرفة ويرد إن كان جاهلا وامرأة. قال أبو القاسم الجزيري في وثائقه انه لقول حسن وذكرت البائعة في مسألتنا أن سبب بيعها على محجورتها حظها من المبيع المذكور لنفقة عليها ولما رأت في ذلك من الصلاح والسداد ولم تصرح أنها بحال حاجة واضطرار البيع بينوا بحكمكم أبقى الله بركتكم وحفظ رتبتكم ما يترجح عندكم في ذلك كله فإن محبكم متوقف في ذلك على رأيكم الصالح ونظركم السديد الراجح بعون الله تعالى والسلام عليكم من معظم جلالكم وموقر كمالكم محمد بن علي بن محمد أبي رمانة لطف الله به ورحمة الله وبركاته.

الوثيقة رقم 7 : رسالة من قاضي مكناسة أبي رمانة الى أحد العلماء (21)**يستشيره في مسألة قضائية وقعت بين يديه.** (22)

«يتفضل أخي وبركة الشيخ الفقيه المدرس المفتي العالم العلم أبو عمران موسى بن الشيخ الأجل أبي عبد الله محمد بن معطي العبدوسي أبقى الله بركته بالجواب عن مسألة وقعت بين يدي محبه، وهي أن امرأة كانت تصدقت على ولدها بدار، وقالت في رسم الصدقة صدقة صحيحة تامة بتلة، وحبست على ولدها المذكور جميع المتصدق به المذكور، مدة من أربعين عاما متوالية تحبيسا صحيحا تاما، ثم توفيت فورثها ولدها المذكور، ثم توفي ولدها المذكور، فورثه ورثته، ثم باع ورثته المذكورون جميع الدار قبل انصرام أمد التحبيس، ثم قامت ابنة، وهي من ورثته تطلب نقض البيع لكون البيع وقع قبل مضي المدة المذكورة وفي نوازل ابن سحنون أرأيت لو أن رجلا تصدق على رجل بعبد على ألا يبيعه ولا يهبه سنة، ثم هو له بعد السنة بتل يصنع فيه ما شاء قال أراه جائزا وله أن يبيعه ويصنع فيه ما شاء الساعة، وحصل فيها ابن رشد رحمه الله في رسم لن خرجت من سماع عيسى خمسة أقوال، وتكررت أيضا في سماع سحنون فقال : مافي أصل المسألة من الاختلاف، فأريد من كمال أخي أعزه الله تعالى ما يظهر له من إمضاء البيع أو فسخه والله سبحانه يديم عزته ورفعته، والسلام الكريم يخصه به معظم قدره، وملتزم، الاخلاص في حبه محمد بن علي بن محمد بن أبي رمانة لطف الله به».

الوثيقة رقم 8 : نازلة حول تملك أحد الأمراء المرينيين لحمام في مكناسة (23) عن طريق الشفعة.(24)

وسئلت (25) من مدينة مكناسة الزيتون عن مسألة من الشفعة نصها :

«سيدي أبقاكم الله، جوابكم في مسألة وذلك أن الأمير أسعده الله كان له شقص (26) في حمام أنجر للمسلمين، واستمر ملكه عليه الى أن باع بعض من له حظ في الحمام المذكور حظه فيه، فأخذ الأمير بالشفعة في الحظ المبيع المذكور، وذلك بأن أشهد على نفسه أنه أخذ بالشفعة وشهد عليه العدول بذلك. ثم إن الأمير المذكور باع حظه القديم والمأخوذ بالشفعة من رجل آخر، وذلك لمدة من عامين سلفا عن تاريخه، فقام الآن المشتري للحظ المذكور، وقال إن الأمير لم يأخذ بالشفعة في الحظ الذي اشتريته، فشهد العدول وأدوا شهادتهم أن الأمير المذكور كان أخذ بالشفعة على نحو ما ذكر فهل سيدي بيع الأمير للحظين على الوجه المذكور ماض أم لا ؟ بينوا ذلك بيانا شافيا ولك الأجر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

الوثيقة رقم 9 : نازلة سئل عنها أحد فقهاء مكناسة (27) و(28)

«الحمد لله، سيدي رضي الله عنكم وأرضاكم، وجعل الجنة منزلكم ومأواكم، جوابكم المبارك الشافي في مدينة تهدم بعض سورها ومحتاج الى الاصلاح، ولا حبس عليه ولا فيه مال، فهل يجب إصلاحه على من بالمدينة من غني أو فقير سواء بينهم ؟ أو على قدر المال واليسار ؟ أم إنما يجب على ذوي المكنة خاصة ؟ وكيف إن امتنعوا من ذلك ؟ هل يجبرون أم يندبون خاصة أم لا يجبرون ولا يندبون ؟ أم يفرق بين الثغور وغيرها. وما للماوردي في ذلك، هل هو موافق للمذهب أم لا ؟ وهل نص عليه أحد من المالكية أم لا ؟».

الوثيقة رقم 10 : عقد كتبه أحد قضاة مكناسة حول رجل طلق زوجته وتطوع في صداقها بتحريم نكاح مفارقته. (29)

«الحمد لله أشهد محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز العافية الفقيه القاضي بمدينة مكناسة أعزه الله تعالى وحرسها بأعمال اعلام المرسوم أعلاه الأعمال التام لصحته عنده، وأذن للمطلق المذكور بمراجعة المفارقة المذكورة فوقه إننا تاما بعد أن وقف على الفتيا المذكورة فوقه، وأمضى الحكم به. شهد على من ذكر أعزه الله وهو بمجلس قضائه من المدينة المذكورة، وفي رابع ذي الحجة عام اثني عشر وثمانمائة محمد بن عبد الله بن عون، ومحمد بن أحمد بن محمد بن أحمد والحسن بن محمد بن محمد بن جابر».

الوثيقة رقم 11 : شهادة أحد قضاه مكناسة على صحة عقد سابق. (30)

«أشهد أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي العافية الفقيه القاضي بمدينة مكناسة أعزه الله تعالى باستقلال الرسم فوقه (31) يليه استقلالا تاما لصحته عنده وثبوته لديه بواجبه، وسجل بذلك أعزه الله تعالى تحصينا للرسم المذكور وتثبيتا له. وذلك بمجلس نظره وقضائه من المدينة المذكورة في عشرين لصفر عام ستة وتسعين وسبعمائة».

خلاصة واستنتاج

إذا كانت هذه الوثائق (32) تجعلنا نتجاوز الرؤية الأجنبية التي حسمت القول بانعدام وثائق المدن المغربية في العصر الوسيط، وضمنها مدينة مكناس، فإن هذا التجاوز لن يقدر له الاكتمال إلا إذا ارتكز الباحث المتعامل معها على دعامتين : أولها تحقيقها تحقيقا علميا، لا ينبهر بمستواها الظاهري فحسب، بل يحاول النفاذ الى جوانبها الخفية، واستنطاقها من كافة الجوانب؛ أما ثانيهما فهي المزيد من البحث والحفر في التراث المغمور الذي تختزنه بعض المخطوطات، خاصة تلك التي تتصل بالمجتمع وفئاته الشعبية، لأنها فئات أنتجت وصنعت التاريخ فمن الضرورة أن تكون هذه الوثائق وبالتالي هذا التاريخ ملكا لها - لا لغيرها - وتلك مهمة ومسؤولية ملقاة على أبناء هذه المدينة. عند هذا الحد، سيعرف تاريخ مكناس - دون شك - نقلة هامة من التصور العشوائي لحركيته، الى تصور كلي مرتكز على قوانين ثابتة، وتصميم علمي لفهم صيرورته، والتوصل عبر قنواته الى إدراك محترم وهادف لآفاق المدينة المستقبلية.

ابراهيم القادري بوتشيش

الهوامش

• كانت هذه الوثائق تشكل أصلا ملاحق للبحث الذي قدم لندوة الحاضرة الاسماعيلية الكبرى (أكتوبر 1986) ثم طور الى بحث مستقل.

(1) بدأ بعض الباحثين المغاربة في إنجاز رسائل جامعية حول تاريخ المدن المغربية في العصر الوسيط نذكر على سبيل المثال رسالة لازالت في طور الانجاز للاستاذ محمد ماهر الريفي حول مدينة تازة في عصر بني مرين.

(2) انظر : إبن سودة : دليل مؤرخ المغرب الأقصى ج 1 طبعة البيضاء 1960 (ط : 2) ص : 29 ـ 30.

(3) نفسه ص : 42

(4) نذكر على سبيل المثال كتاب اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار لابن عبد الله محمد بن القاسم بن محمد الأنصاري (القرن 9 هـ) وجني زهرة الآس للجزنائي وتاريخ مدينة تطوان لأحمد داود وإتحاف أعلام الناس لعبد الرحمن بن زيدان.

(5) انظر على سبيل المثال Les Archives Municipales de Bordeaux

(6) انظر على سبيل المثال كذلك : Les Archives départementales de la Gironde.
وقد صنف احمد محمودي هذه الارشيفات في بيبلوغرافيا بحثه للسلك الثالث الذي قدمه تحت عنوان : Les villes de la Garonne Bordelaise au moyen-âge : Rion, Cadillac, st-Macaire Langon 1973.

(7) بالاضافة الى بعض الكتابات الأجنبية بدأت الكتابات الوطنية تظهر على الساحة ممثلة في رسائل الباحثين الجامعيين، ينظر في هذا الصدد الى رسالة محمد اللحية، الحياة الاقتصادية في مدينة مكناس خلال القرن 19، وكذلك بوشتى بوعسرية عن أحداث بوفكران سنة 1937. والبحثان معا لا زالا مطبوعين بالآلة الكاتبة.

(8) — The History of revolution in the empire of Morroco upon the death of the late emperoy M$_y$ Ismaïl. London 1729.

(9) — Le Maroc et ses villes d'art celèbres : Tanger, Fès et Meknès Paris 1924.

(10) — Histoire du règne de My Ismail, Roi du Maroc. Paris. Beyrouth 1754,

(11) إبراهيم القادري بوتشيش : وثائق حول التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمغرب والاندلس في العصر الوسيط مجلة دار النيابة العدد 13 سنة 1987 ص : 18.

(12) انظر مجلدات الفهارس الخمس للخزانة الحسنية وكذلك المجلدات الثلاث للخزانة العامة بالرباط بالاضافة الى فهارس خزانة القرويين (3 أجزاء) والخزانة الصبيحية بسلا وخزانة ابن يوسف بمراكش.

(13) انظر محمد زنيبر : الاسلام منذ الانطلاقة الأولى الى نهاية الدولة الأموية، طبعة الرباط 1973. وكذلك محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية والادارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة 247 ـ 656 هـ، طبعة بيروت 1978.

(14) الوثيقة مأخودة من كتاب قلائد العقيان لابن خاقان ص 119 ـ 120.

(15) الوثيقة مأخودة من كتاب البيان المغرب لابن عذاري قسم الموحدين الذي نشر أخيرا تحت إشراف السادة الأساتذة محمد ابراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة. طبعة البيضاء 1985 ص : 373 ـ 376.

(16) هو أحد الخلفاء الموحدين حكم ما بين 627 و629 هـ والرسالة هي كذلك من إنشاء الكاتب ابن عبدون ومأخودة أيضا من نفس المرجع السابق ص 377 ـ 378.

(17) هو أحد الخلفاء الموحدين ما بين 640 و646 هـ. والرسالة هي كذلك من إنشاء الكاتب ابن عبدون ومأخوذة أيضا من نفس المرجع السابق ص 377 ـ 378.

(18) الرسالة مأخودة من كتاب المعيار المعرب للونشريسي ج 8 ص : 56 ـ 57 طبعة بيروت 1981.

(19) هو القاضي محمد بن أبي رمانة وقد بعث استفساره الى أبي عمران العبدوسي.

(20) الوثيقة ماخودة من المرجع الآنفّ الذكر ج 9 ص 428.
(21) هو أبو عمران موسى بن محمد بن معطي العبدوسي.
(22) الرسالة مأخودة من نوازل الونشريسي أيضا انظر ج 7 ص 14.
(23) يمكن أن نفترض بأن تاريخ هذه النازلة كان حوالي 871 هـ انطلاقا من تاريخ النازلة التي سبقتها والتي تدخل في نفس الموضوع، ومن المحتمل جدا أن يكون الأمير المعنى بالأمر أحد أفراد العائلة المرينية لأن النازلة معاصرة للونشريسي الذي أجاب عنها شخصيا، أما لماذا افترضنا أن الحمام كان موجودا في مدينة مكناسة فلأن النازلة وردت من هذه المدينة، ولا يمكن إلا أن تكون خاصة بشؤونها.
(24) وردت هذه النازلة في كتاب المعيار للونشريسي ج 8 ص 111 ـ 112.
(25) المعني بالأمر هو الونشريسي صاحب كتاب المعيار.
(26) الشقص هو السهم أو النصيب.
(27) هو القاضي الفقيه أبو عبد الله بن مرزوق.
(28) النازلة مأخودة من كتاب المعيار ج 5 ص : 347 ـ 348.
(29) ورد هذا العقد في نفس المصدر ج 4 ص 121.
(30) ورد في نفس المصدر كذلك ص 412.
(31) الرسم المشار اليه هو تقييد للقاضي أبي عثمان بن سعيد بن محمد العقباني وقد جاءت شهادة قاضي مكناسة المكتوبة أعلاه، كتقييد أعقب التقييد السابق.
(32) ثمة وثيقة أخرى لم نذكرها لطولها وتتعلق بإصلاح ما فسد من بنيان المدارس والمرتبات بمكناسة الزيتون، انظر كتاب المعيار ج 7 ص ـ 8 ـ 11.

النشاط العلمي والثقافي بالكلية

لائـحة البحوث لنيـل الاجازة للسنة الجامعية 1985 ـ 1986

شعبة : اللغة العربية وآدابها

الأستاذ المشرف : علال الحجام

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	أحمد العثماني	ديوان العهد الاتاي لأمل دنقل دراسة وتحليل.
2	مصطفى العسري	ديوان «أناديك ياملكي وحبيبي» لمحمد علي شمس الدين (دراسة وتحليل)
3	خديجة الكبوري	بنية الواقع في القصة القصيرة المغربية (1970 ـ 1982) ظاهرة الاغتراب لدى القصاصين المغاربة.
4	مينة العثماني	دراسة وتحليل لرواية «يحدث في مصر الان» ليوسف القعيد.
5	عبد الحق زواكي	مشكلة الحداثة في الشعر العربي المعاصر
6	محمد بنمصنور	الجنس في الكتابة الروائية عند محمد زفزاف
7	بنعيسى بعادا	الاسئلة الواقعية في كتاب «في الثقافة المصرية» لمحمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس

الأستاذ المشرف : عبد الرحيم القادمي

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	عبد العالي عمري	العامل بن التبويب والتعليل في النحو العربي
2	عز الدين البوشيخي	تأملات في اللغة/موضوع البحث ترجمة وتعليق
3	عبد الاله بوعلي	تأملات في اللغة/القوة المعرفية ترجمة وتعليق

الأستاذ المشرف : عبد السلام العمراني الجاي

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	فاطمة الحسناوي	النقد الحديث وهجاء بشار
2	فاطمة صنديد	النزعة التشاؤمية في شعر ابن الرومي من منظور النقد الحديث
3	رشيدة العطشان	النقاد المحدثون وخمريات أبي نواس
4	ميلودة خيدوس	شعر الزهد لدى أبي العتاهية في آثار الدارسين المحدثين
5	لحسن جعوف	السخرية عند أبي نواس
6	جميلة ديدي	المنهج التاريخي وحماسيات أبي الطيب المتنبي
7	سعود كملي	غزل بشار بن برد من خلال النقد الحديث
8	حميد بوگطاية	النقد الحديث ومظاهر الشعوبية في شعر أبي نواس

الأستاذ المشرف : محمد الوادي

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	محمد بن بوعزة	الخطوط العريضة لفنولوجيا العربية الكلاسيكية ترجمة وتعليق
2	محمد عفط	القياس اللغوي بين القديم والحديث
3	محمد العبادي	ثلاثة دروس في الصوت والمعنى ترجمة وتعليق

الأستاذ المشرف : المولودي سعيدي

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	احمد احرشاه	الكتابة الواقعية دراسة في الكتابة الروائية عند نجيب محفوظ.
2	محمد أمين	خصائص وتطور الشعر الفلسطيني المقاوم
3	محمد عواد	البطل الملتزم بين الانتماء والاضطهاد دراسة في رواية شرق المتوسط لعبد الرحمن منيف
4	محمد صبري	البنية الحكائية في روايات محمد صوف
5	الحسن سرحان	البنية السردية في قصص م. ابراهيم بوعلو
6	عبد العزيز اهقار	معالم التجديد في كتابات جبران خليل جبران
7	عبد النبي ذاكر	دراسة نصية لاشعار محمود درويش
8	الغالبي مريم	معالم الكتابة الواقعية لدى محمد زفزاف من خلال روايتي : «بيضة الديك» «والمرأة والوردة» كنموذج
9	رشيدة بالفقيه	الواقع والأسطورة في الرواية المغربية من خلال رواية الأبله والمنسية والياسمين للميلودي شغموم

الأستاذ المشرف : فاطمة شبشوب

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	فتيحة سكاح	توظيف التراث في المسرح المغربي عند الطيب الصديقي (عبد الرحمن المجذوب) نموذجا
2	جميلة نواسي	توظيف الثرات اللغوي في المسرح عند عبد الكريم برشيد (سالف لونجا) نموذجا
3	رشيدة زغواني	المرأة في المسرح المغربي نموذج لعلج (ولي الله)

الأستاذ المشرف : محمد الولي

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	احمد طيكوك	المحاكاة والتخيل عند الفلاسفة والنقاد ابن سينا وحازم القرطاجني
2	ادريس حلواني	الأسلوبية والنقد العربي المعاصر
3	محمد ادادا	دراسة الأساليب البيانية في رواية «بيروت 75» لغادة السمان
4	محمد الفززى	دراسة بلاغية لمعلقتي عمرو بن كلثوم وامرؤ القيس
5	عبد الله الكُراوى	دراسة لكتاب «الشعر العربي المعاصر» للدكتور عز الدين اسماعيل
6	عبد الحكيم المختوم	القومية في شعر نزار قباني
7	فاطمة الزهراء الشباب	الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث
8	لكبير صواب	المحاكاة والتخييل عند البلاغيين

الأستاذ المشرف : عبد الرحمن بناني

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	فتيحة بوعبيد	الشعراء النقاد ومدى مساهمتهم في نقد الشعر : دراسة وتحليل ومقارنة. ابن المعتز نموذجا
2	محجوبة جنيح	الشعراء النقاد ومدي مساهمتهم في نقد الشعراء : دراسة وتحليل ومقارنة، الاصمعي نموذجا
3	محمد فايز	الشعراء النقاد ومدى مساهمتهم في نقد الشعر : دراسة وتلحيل ومقارنة قدامة بن جعفر نموذجا.

الأستاذ المشرف : محمود سمارة

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	نادية مهاود	فهارس زهد الآداب.
2	سعيدة مومني	فهارس كتاب خزانة الآداب
3	أمينة بودرسة	فهارس كتاب خزانة الاداب
4	فتيحة اليوسفي	صورة المرأة في شعر نزار قباني
5	فتيحة اللبار	فهرسة كتاب خزانة الآداب سلامة البغدادي الجزء الثالث.
6	نزهة قشيبل	فهارس زهد الآداب العصري ج 1 ـ 2.
7	محمد رؤوف الأسماعيلي	أثر شخصية المتنبي في الأندلس
8	ليلى العلمي	الخنساء حياتها وشعرها
9	أم كلثوم بن التهامي	شعر الفروسية في الجاهلية
10	فاطمة أبييد	مظاهر التجديد في الشعر العباسي
11	بهيجة المريقي	المرأة في الشعر الجاهلي
12	فاتحة أكْومي	النزعة الرومانية في شعر الشابي

الأستاذ المشرف : عبد العالي بوطيب

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	بشرى العلوي الحسيني	دراسة اجتماعية لروايتي مبارك ربيع «الطيبون» و«الريح الشتوية»
2	التجاني فلاح	البنية الروائية : النموذج «بيضة الديك» لمحمد زفزاف .
3	المصطفى زولي	الروائي والأيديولوجي نموذج «اللص والكلاب» لنجيب محفوظ.
4	ليلى علوي قبي	الاتوبيوغرافي والروائي من خلال «الخبز الحافي» لمحمد شكري.
5	مونية لحلو	علاقة الروائي والايديولوجي من خلال رواية «قبور في الماء» لمحمد زفزاف.
6	بشرى العطشان	الاتوبيوغرافي والروائي من خلال رواية «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم.
7	نادية العباسي	الحضور الغربي في الرواية المغربية : النموذج «المرأة والوردة» لمحمد زفزاف.
8	نزهة عزماوي	الروائي والايديولوجي من خلال «رواية السفينة» الجبرا ابراهيم جبرا.
9	عزيزة كابد	المرأة والجنس من خلال رواية «الأفعى والبحر» لمحمد زفزاف.
10	رجاء بنعزو	الرواية والتاريخ رواية «دفنا الماضي» نموذجا.
11	تورية السيباري	الاتوبيوغرافي والايديولوجي من خلال «الخبز الحافي» لمحمد شكري.

الأستاذ المشرف : سعيد بنكراد

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	نادية مأمور	التركيب العاملي في النص من ألف ليلة وليلة
2	عبد الله مهداوي	بنية الشخوص في رواية دفنا الماضي لعبد الكريم غلاب
3	محمد السريتي	البنية الزمنية في «روايةرفقة السلاح والقمر»
4	عبد الله لمسيح	ترجمة جزء من كتاب «Limage litteraire» والتعليق عليه François Moreau
5	أو لمامون أو بنعى	بنية الشخوص داخل عمل سردى في «الابلة والمنسية والياسمين» للميلودي شغموم نموذجا

الأستاذ المشرف : أمحمد العلمي

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	عبد العالي وحميدو	عبد المجيد بن جلون وقضية الالتزام السياسي والاجتماعي
2	سعيدة الحسني	الالتزام السياسي عند عبد الكريم بن ثابت من خلال شعره «ديوان الحرية»
3	محمد ابن مينة	الالتزام السياسي في شعر محمد الحبيب الفرقاني من خلال ديوانه «نجوم في يدي»
4	الحسن الطاهري	قضية الالتزام السياسي في شعر علال الفاسي
5	علي قاسمي علوي	الالتزام السياسي في شعر محمد الوديع الآشقي من خلال ديوانه الجرح العنيد

الأستاذ المشرف : عبد الرحمن بن زيدان

رقم	اسم البطالب	موضوع البحث
1	فتيحة المباركي الزعري	التراث الشعبي في المسرح المغربي ظواهره وقضاياه.
2	فاطمة منزهي	المسرح المغربي في العلم الثقافي 1968 ـ 1985 بحث بيبليوغرافي.
3	سلوة لحنين	البطل التراجيدي في المسرح السوري ورؤية العالم.
4	فاطمة جلال	البطل التراجيدي في مسرح محمد مسكين.
5	اسماعيل علوي اسماعيلي	النقد المسرحي في المغرب قضاياه الفنية والفكرية.
6	حسن يوسفي	عبد الكريم برشيد منظرا وكاتبا مسرحيا.
7	محمد العماري	الجذور الفكرية والفنية للمسرح الاحتفالي.
8	سميرة أو بلهى	الشخصيات التراثية في مسرح السيد حافظ وظيفتها الفنية والفكرية.
9	أسية لمرابط	الرؤية المعاصرة للتراث في المسرح العربي الطلائعي
10	ادريس حميش	التصوف في المسرح العربي صلاح عبد الصبور نموذجا.
11	بنسالم الخطيب	صورة المجتمع الكويتي في المسرح عبد العزيز الريح.

الأستاذ المشرف : علال معكول

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	زهور العلوي الاسماعيلي	شعر الزهد بين أبي العتاهية وأبي نواس
2	بشرى الزوهرى	الدلالة الاجتماعية والفنية في شعر عروة بن الورد.
3	عبد الحق لغريسي	رثاء الأندلس لابن عبدون وابن الابار وأبي البقاء الرندي (دراسة مقارنة)
4	فاطمة ازعيتراوي	صورة المجتمع العباسي من خلال شعر أبي نواس
5	نور الدين العيساوي	رسالة الشقندي دراسة وتحليل
6	محمد العربي العلوي السليماني	ابن شهيد الأندلسي شاعرا
7	فاطمة كوزي	الشخصية الأندلسية من خلال رسالة ابن حزم أو مقدمة الذخيرة لابن بسام دراسة وتحليل
8	عبد الواحد بلمكي	الحياة الفكرية في سجلماسة في عهد الدولة العلوية.
9	عبد الرزاق بوعلي	ابن شهيد ناقدا
10	خالد الدادسي	عبد العزيز الفشتالي شاعرا (دراسة تحليلية نقدية)
11	يوسف حسن	وصف الطبيعة في شعر ابن خفاجة دراسة وتحليل.
12	مريم الغمري	الغربة والتشيع في شعر ابن هانيء الأندلسي

الاستاذ المشرف : محمد الوافي

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	شوقي شاكر	قصة هود في القرآن
2	محمد السوسي	قصة سليمان في القرآن
3	محمد الغياتي	قصة عيسى في القرآن
4	مصطفى بورشاشن	قصة موسى في القرآن
5	بديعة بنبوشعيب	قصة مريم في القرآن
6	محمد حمومي	قصة نوح في القرآن
7	زهور اعسرى	قصة آدم في القرآن
8	الحسان العزوزي	قصة ابراهيم في القرآن
9	رشيدة فليح	قصة يوسف في القرآن

الاستاذ المشرف : عز الدين السلاوي

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	نزهة كلمي	قراءة في بنيويات البوصيري
2	لطيفة أندلسي	وحدة الوجود في شعر ابن عربي
3	رشيدة بنسعيد	القيم الروحية في الشعر الديني : لسان الدين بن الخطيب نموذجا
4	ثرية بن الأزرق	القيم الروحية في الشعر الديني في العصر العباسي الأول
5	نعيمة بوخيتة	الخلاصة السياسية والاجتماعية للمديح النبوي في العصر الموحدي
6	شوقي المسطاشي	القيم الروحية في شعر الملحون
7	المهدي الناوى	صورة الرسول (ص) في المدائح النبوية العصر السعدي نموذجا
8	رشيد لكْناوي	ظاهرة المديح في العصر العلوي (المديح الرسمي والديني)

الاستاذ المشرف : عبد اللطيف مومن

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	خالد الهشمي	شعر ابن زيدون بين التقليد والتجديد
2	خليد عبد الخالقي	النزعة الروحانية في شعر ابن زيدون
3	الحسن سعودى	شعر النقائض في عصر الرسول
4	ليلى جحيمد	النقائض صورة مكررة للشعر الجاهلي
5	فتيحة ناصر	نكبة المعتمد بن عباد في شعر معاصريه
6	فاطمة القاسمي	أثر الاسلام في شعر حسان بن ثابت
7	رشيدة بن علال	جميل بثينة مجددا
8	ضحى بوجنان	الرحلة في القصيدة الجاهلية : امرؤ القيس نموذجا

شعبة الدراسات الاسلامية

الاستاذ المشرف : عبد الله ودغيري

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	الحسن عربية	أثر الحدود في تقويم سلوك الفرد في الشريعة الاسلامية
2	محمد أبا بكر	مدى احتجاج مالك بعمل أهل المدينة
3	دونيا بومهدي	نظام الشفعية من خلال حديث «لاضرر ولا ضرار»
4	العربي الرفيقي	دور الاجتهاد في تنظيم الخلافة بعد وفاة الرسول (ص)
5	محمد زياني	مراعاة الشريعة الاسلامية للحاجيات
6	عائشة هاشمي	معالم النهضة العلمية في الحضارة العباسية.
7	محمد مايا	أحكام شركة المضاربة في الفقه الاسلامي
8	وفاء ثْريكْر	حرية العقيدة في الاسلام.

الأستاذ المشرف : عبد الله لخضر

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	زهرة كتامي	دور الخطبة في بناء الأسرة
2	رشيد حمادة	الوقف ودوره في تحقيق التكافل الاجتماعي بالمغرب
3	سميرة الرحموني	حقوق الطفل في الشريعة الاسلامية
4	حميد حراك	إزاحة الغيوم على مقدمات العموم
5	حفيظة دادي	منهج المالكية في الاستدلال بالمصالح المرسلة.
6	رابحة امزين	الزواج الفاسد وأثره
7	سعيدة بنموش	أحكام الحضانة في الفقه الاسلامي
8	سعيدة كمل	تعدد الزوجات في الاسلام من الناحية الشرعية والاجتماعية.
9	مرية بلحاج	وضعية المرأة في الأسرة بين الفقه الاسلامي ومدونة الاحوال الشخصية.

الاستاذ المشرف : علي أبو لعكيك

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	بهية النهاري	الاجتهاد في الشريعة الاسلامية : مقوماته آفاقه ومستقبله.
2	نجية الدغوغي	الفرق بين الطلاق السني والبدعي
3	فاطمة ادريغيل	النزعة السلمية في الحضارة الاسلامية
4	محمد بولوز	دور الاسلام في المحافظة على الضروريات الخمس.
5	مولاي عمر بن حماد	الامام الشافعي وأصول مذهبه
6	عبد الحق يدير	الامام أبو حنيفة النعمان : أصول مذهبه وأصالته في الفقه الاسلامي
7	كريمة الأمراني	الاعجاز التشريعي في القرآن الكريم
8	الحسن العلمي	ابن تيمية : مكانته العلمية وأثر اجتهاداته في الفقه الاسلامي.
9	أمنة الطاهري	الاسلام دين يسر

الأستاذ المشرف : محمد عبادي

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	زوبيدة المرنيسي	دراسات في التفسير العلمي للقرآن الكريم.
2	محمد بن قصو	تدوين السنة النبوية
3	عبد الكريم العزوزي	علم أسباب النزول
4	سليمان نايت وحم	التفسير القرآني وتطوره الى زمن المذاهب الفقهية
5	للانزهة لمراني	الاتجاه العقلي في التفسير
6	عبد المجيد بنحنيني	منهج التثبت والتحدي في قبول الحديث أورده
7	جميلة جاوي	التفسير الفقهي للقرآن الكريم من عهد الرسول (ص) وتطوره الى زمن الامام القرطبي
8	جميلة تراث	السنة النبوية ومكانتها في التشرَيع الاسلامي.
9	الحسين وشطين	ظاهرة الوحي ما بين الايمان والانكار
10	المصطفى طرحة	منهج الصحابة والتابعين في تفسير القرآن الكريم
11	ادريوش سعيد	دراسات في الحديث الموضوع
12	ليلى كليف	الامام البخاري وأثره في الحديث
13	جميلة بحرار	السنة النبوية ما بين مزاعم المستشرقين وردود المسلمين.
14	جمال الزاوي	دراسات في طبيعة علم التوحيد

الاستاذ المشرف : عزيز قاسم الوزاني

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	بنسالم الصغير	أثر القرآن في نشأة علم النحو العربي
2	جمعة بلقائد	التحمل والاداء من خلال مؤلفات علماء الحديث النبوي الشريف
3	عبد اللطيف بيجة	أثر الايمان في الحياة البشرية
4	رشيدة عاويني	تحديد النسل من منظور إسلامي
5	كمال الجغم	النسخ بين مثبتيه ومفكريه
6	محمد حيرشي	شرح تطور الجنين في القرآن عبر التفاسير القرآنية
7	علي العلج	التجريح بالكذب
8	عزيز التفاحي	بوادر الضعف في التفاسير النصية
9	لطيفة قاديري	ضروب من الأخلاق في الاسلام
10	رشيد الوردي	تشريع الصيام في الاسلام

الأستاذ المشرف : علال الخياري

رقم	اسم الطالب	موضوع البحث
1	محمد لقريعة	أسس الحضارة الاسلامية
2	عبد العزيز حورمة	اثر الاستشراق في الفكر الاسلامي
3	سعاد الأجاني	إنتاج الحضارة العربية الاسلامية على الحضارات الأخرى.
4	جواد غازي	حق الملكية الفردية في ضوء التشريع الاسلامي
5	أمال بنعبد الجليل	خصائص الحضارة الاسلامية
6	ثورية بن رشيد	الاقتصاد الاسلامي نشأته وتطوره
7	سلوى مغراوي	الفكر الاسلامي ما بين القديم والحديث
8	لطيفة المودن	الانتاج والتوزيع في الاقتصاد الاسلامي
9	محمد الدوبلالي	خصائص الانسان في القرآن الكريم
10	فوزية حسيني	وضعية الفكر الاسلامي لدى الباحثين المعاصرين ومناهجه

التعريف بمجموعات البحث داخل الكلية

معمل المسرح الجامعي

اعتبارا لما يلعبه المسرح من دور فعال في تربية الذوق الفني وفي خلق الحس المعرفي لدى الانسان وخاصة منه الطالب الباحث واعتبارا لأهميته كمادة في مقررات التعليم الجامعي، وحرصا على إغناء النشاط الثقافي في كلية الأداب والعلوم الانسانية بمكناس، أنشيء معمل المسرح الجامعي في أحضان الكلية ليستقبل حوالي أربعين طالبا وطالبة من مختلف الشعب مع بعض الأساتذة.

كانت اللقاءات الأولى موقوفة على شرح أهداف معمل المسرح الجامعي والتي هي :

- المساهمة في إغناء النشاط الثقافي في الكلية.
- محاولة سد الثغرة بين النظري والتطبيقي في مادة المسرح لدى طلبة الآداب واللغات.
- مساعدة الطالب على اكتشاف مواهبه واستعمال معلوماته وتجاربه في إطار جامعي.
- توعية الطالب بدوره كعنصر مثقف وبواجبه كمواطن متعلم نحو تاريخ وطنه ومدينته وكليته وذلك بهديه الى ميادين البحث الملحة في بلدنا، كميدان التوثيق المسرحي وميدان التصنيف والنقد والتحليل وميدان الترجمة وميدان التحقيق.
- زرع بذرة المنافسة بين الطلبة المشاركين في المعمل المسرحي.

وبعد تكون اللجن الضرورية للعمل شرع المعمل في إعداد مسرحية «عطيل» للكاتب الانجليزي وليام شيكسبير في ترجمة عربية للشاعر جبرا ابراهيم جبرا. وعرضت المسرحية يوم السبت 15 فبراير بمناسبة افتتاح الدورة الأولى للمعمل وذلك في إطار يوم مسرحي كامل ألقيت فيه عروض شارك بها كل من الأساتذة : أعمار خالد (مؤطر في المعمل) الدكتور عبد الله الطيب (من فاس) الولي محمد - بنعبد الجليل محمد وعبد الرحمن بنزيدان. كما عرضت لوحات للطلبة (محمد السالحي ومبارك أزارا وبالبخاري عبد الله) ولوحات للأساتذة (جريز لدا الطيب، ومحمد الكوي).

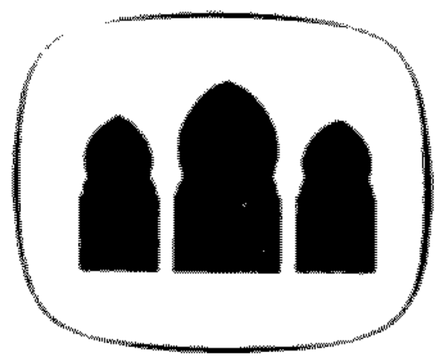

MAKNASAT

REVUE DE LA FACULTÉ DES LETTRES ET DES SCIENCES HUMAINES DE MEKNÈS

NUMÉRO 2

Ed. EL MAARIF AL JAIDA - Rabat